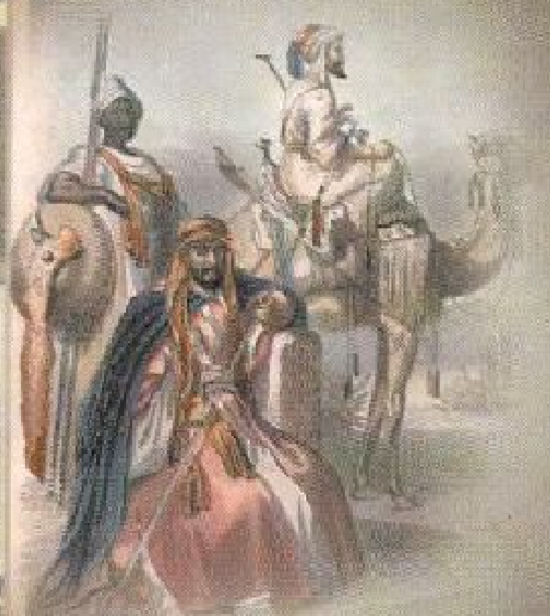
السيطرة العثمانية على الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن ١٦





الأستاذ
أحمد سالم

مؤسسة شباب الجامعة
40 ش د / مصطفى مشرفة
تليفاكس: 4839496 الإسكندرية
Email:shabab_elgamaa@yahoo.com

السيطـرة العثمانيـة

علــى

الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن ١٦

الأستاذ

أحمد سالم سالم علي

٢٠١١

الناشر

مؤسسـة شبـاب الجامعة

٤٠ شارع الدكتور مصطفى مشرفة

إسكندرية – تليفاكس : ٤٨٣٩٤٩٦

Email:Shabab_Elgamaa@yahoo.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم
لقدير * الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن
يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت
صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا
ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن
مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا
بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور *﴾

{سورة الحج الآيات : ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١}

إهداء

إلى كل مجاهد في سبيل الله ، ضحى بنفسه وماله

لتكون كلمة الله هي العليا

إلى المجاهدين الأوائل الذين ضحوا بأنفسهم

الغالية لتصلنا كلمة التوحيد

المؤلف

أحمد سالم علي

المقدمــــة

لم يكن اختياري لموضوع هذا البحث اختيارا عشوائيا ، بل كان متعلقا بأهمية الموضوع ذاته ، وارتباطه ارتباطا وثيقا بتاريخنا المعاصر.

إن موضوع السيطرة العثمانية على المشرق العربي هو موضوع ذو حساسية شديدة لذلك فقد تناوله بالبحث العديد و العديد من المؤرخين والباحثين العرب والأجانب ، وفي نفس الوقت كان لموضوع السيطرة العثمانية على بلدان المغرب العربي نفس تلك الأهمية التي أفرد لها المؤرخون العديد من الأبحاث التي تناولتها بالبحث والتمحيص.

ولكنني وجدت من خلال اطلاعي على هذه الأبحاث أن الموضوعين قد ارتبطا ارتباطا وثيقا لا يمكن فصله ولكن يمكن الاستفادة به لمعرفة العديد من الأسباب والنتائج التي تتعلق بالموضوعين ، فان منطقتي المشرق والمغرب العربيتين كانتا ترتبطان بظروف سياسية واحدة وعلاقات متبادلة فضلا عن تعرضهما لنفس الإخطار الخارجية المتمثلة في أول استعمار أوروبي بالمعنى الحديث على يد اسبانيا والبرتغال.

لذلك رأيت قبل التطرق للأوضاع السياسية في المغرب العربي في القرن السادس عشر وكيفية السيطرة العثمانية على تلك المنطقة ، أنه لابد من أفراد الفصل الأول للحديث عن الدولة العثمانية ومقومات ارتقائها وتوسعها ، ثم أسباب توجهها شطر العالم العربي للسيطرة عليه بعد أن كانت تتبع إستراتيجية التوسع في القارة الأوروبية ، ثم تناولت أثناء حديثي الآراء التي تناولها معظم الباحثين عن سلبيات تلك السيطرة العثمانية ، وما إن كانت تلك الآراء فعلا آراء منصفة أم أنها تحتاج لإعادة نظر من جديد.

لقد استطعت أن أضع من خلال هذا الفصل الأسس والركائز التي من خلالها أستطيع الحديث في الفصول اللاحقة عن دور الدولة العثمانية في تغيير الأوضاع السياسية للمغرب العربي بعد تعرضه للأخطار الخارجية واستعمار أجزاء منه على يد اسبانيا والبرتغال في القرنين الخامس عشر والسادس عشر.

وفي الفصل الثاني تناولت الأوضاع السياسية للمغرب العربي قبيل السيطرة العثمانية في القرن السادس عشر وما تشتمل عليه تلك الأوضاع من الانهيار السياسي لبلدان المغرب العربي في أواخر العصور الوسطى ، حتى كانت فريسة سهلة بعد ذلك للاستعمار الأوروبي في مستهل العصور الحديثة على يد اسبانيا والبرتغال.

وفي الفصل الثالث انتقلت إلي دور الجهاد البحري الذي كان بمثابة ردة الفعل للاستعمار الأوروبي لسواحل المغرب ، ودور هذا الجهاد في تدعيم النفوذ العثماني في غربي البحر المتوسط ، ومن خلال هذا الفصل أتحدث عن دور المجاهدين العظيمين الأخوين خير الدين وعروج برباروسا اللذين لهما عظيم الفضل في وصول النفوذ العثماني الي تلك المناطق ، بالإضافة إلي دور المجاهدين العظيمين في تقوية الأسطول العثماني والارتقاء به نوعا وكما حتى أصبح من أقوى الاساطيل البحرية في ذلك العصر ، فضلا عن سيطرته الواسعة على البحر المتوسط شرقا وغربا.

والفصل الرابع أفردته للبحث في كيفية إتمام السيطرة العثمانية على بلدان المغرب العربي ، منذ أن وضعت أولى خطواتها في إقليم الجزائر في الربع الأول من القرن السادس عشر وحتى إعادة فتح تونس وانتزاعها من الاسبان نهائيا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ،

لهذا تناولت في هذا الفصل كيفية تأسيس نيابة الجزائر ودخولها تحت السيطرة العثمانية ، وكيف أنها كانت ركيزة هامة للجهاد في بلدان المغرب العربي ، ودور ولاتها العظام في تقوية النفوذ العثماني في غربي البحر المتوسط وفي قطع يد المحتل الاسباني عن تلك المناطق ، هذا فضلا عن محاولاتهم المستمرة في إعانة إخوانهم المسلمين المضطهدين في الأندلس ، ثم كيفية مد النفوذ العثماني وإتمام السيطرة على تونس وطرابلس الغرب لتشكل في نهاية القرن السادس عشر ولايات شمال أفريقيا العثمانية بنياباتها الثلاث طرابلس وتونس والجزائر.

أما الفصل الخامس والأخير فبحث من خلاله العلاقات العثمانية المغربية في القرن السادس عشر ، لما لهذه العلاقات من عظيم الأثر في فجر التاريخ الحديث ، فلقد تشكلت من خلالها العديد من الأسس والركائز سارت عليها السياسة الدولية في هذه المنطقة لعدة قرون من الزمان ، ولم تتبدل هذه السياسة إلا بعد نهوض الغرب الأوروبي بشكله الحديث وتطلعه إلى إخضاع هذه المنطقة لأهميتها الإستراتيجية والاقتصادية في القرن التاسع عشر.

أرجو من الله تعالى بعد حمده أن أكون قد وفقت في دراستي هذه ، وأن أكون قد أضفت جديدا ولو قليلا على الكثير الذي قدمه من قبل أساتذتي الأفاضل ، وفي النهاية أتقدم بالشكر والتقدير لكل من قدم لي يد النصح والمساعدة والعون على إتمام هذا العمل وفي مقدمتهم أساتذتي الأفاضل :

أ.د محمد محمود السروجي ، أ.د فاروق عثمان أباظة ، أ.د ناهد الدسوقي أساتذة التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، وأبعث بتحية تقدير وعرفان إلي المرحوم العالم الجليل

أستاذنا الدكتور/ السيد عبد العزيز سالم ، الذي أمدني بالعون الروحـــي فأدعو الله تعالى أن يتغمده برحمته ، وأخص بالتحية أيضا أستاذي العالم الجليل الأستاذ الدكتور/ أحمد مختار العبادى أستاذ التـــاريخ والحضــــارة الإسلامية بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، أطال الله عمره ونفعنا بعلمه ، وفي النهاية أرجو من الله تعالى أن ينفع بهذا العمل الإسلام والمســلمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم أجمعين.

المؤلـــف

أحمـــد سالـــم سالـــم

الفصل الأول
تنامي الدور العثماني
شرقي البحر المتوسط

- قيام الدولة العثمانية.
- مقومات التوسع العثماني.
- أسباب التوجه العثماني شطر المشرق العربي.
- آراء في ايجابيات وسلبيات السيطرة العثمانية على العالم العربي.
- الأثر الاستراتيجي للسيطرة العثمانية على العالم العربي من الناحية الشرقية.

الفصل الأول

تنامي الدور العثماني شرقي البحر المتوسط

قيام الدولة العثمانية وتطورها :

لم تكن الدولة العثمانية في مهدها سوى إمارة صغيرة تكونت ضمن أمارات تركمانية شتى ، نشأت نتيجة نزوح القبائل من أواسط آسيا تحت ضغط المغول المتجهين غربا نحو مناطق الثغور في آسيا الصغرى في القرن الثالث عشر عندما بدأت موجات الغزو المغولي تجتاح العالم الإسلامي من الشرق إلي الغرب. وقد لعبت هذه القبائل دورا هاما في تكثيف العنصر البشري عامة والتركي خاصة في مناطق الحدود البيزنطية(١).

ولقد كانت منطقة الأناضول في نهاية القرن الثالث عشر في تغير دائم ، فلقد انهارت سلطنة سلاجقة الروم القوية أمام زحف الغزاة من مغول إيران ، وأصبح السلاطين في حقيقة الأمر تابعين لهم . فتعهد السلطان السلجوقي بعد هزيمته على يد المغول عام ١٢٤٣م بدفع جزية سنوية باهظة . وكان قواد جيش الاحتلال المغولي هم الحكام الحقيقيون للبلاد السلجوقية كلها.

وفي نفس الوقت فإن توغل الفتوحات المغولية تجاه الشرق دفع إلي تحرك الشعوب الإسلامية – أساسا الأتراك – والمجاهدين ، الذين اتجهوا إلي المناطق الغربية بعيدا عن سيطرة المغول ، وقد ساعد ذلك كما تقدم على زيادة كثافة العنصر التركي الإسلامي في الأناضول ، ودخل بعض هؤلاء في خدمة سلطنة المماليك الدولة القوية التي أوقفت التوسع المغولي في الأراضي الإسلامية(٢) ، واستقر البعض الآخر على التخوم البيزنطية التي كونت الحد الغربي لسلطنة الروم. وقد اختلطت تلك الشعوب بسهولة تامة مع سكان الحدود الذين استقروا هناك قبلهم واكتسبوا

دون أدنى صعوبة الشخصية التقليدية للقاطنين في مناطق الحدود البيزنطية وهي حب الجهاد المقدس ضد جيرانهم البيزنطيين المسيحيين[٣] ومنذ ذلك الوقت بدأت تظهر إمارات عسكرية صغيرة تكونت الواحدة تلو الأخرى من أقاليم صغيرة يسيطر على كل منها أمير يحمل لقب غازي أو قائد الغزاة ، ونجحت تلك الأمارات فيما بعد من توسيع رقعة أراضيها على حساب البيزنطيين وفي نفس الوقت على حساب أراضي سلطنة سلاجقة الروم المضمحلة ، وكان أشهر هذه الإمارات ست عشرة إمارة من بينها إمارة آل عثمان التي قدر لها من بين تلك الدول التركية أن تصبح إمبراطورية مترامية الأطراف ، وأن تحكم شعوبا ومللا ونحلا غير متجانسة وأن تكون أطول دول الترك بقاء[٤].

وقد تباينت الأقوال والروايات عن الظروف المحيطة بتأسيس هذه الإمارة الصغيرة في غربي الأناضول ، ومعظم هذه الروايات يشوبها جو أسطوري وطابع روائي لا يمت للحقيقة التاريخية بصلة كبيرة ، ولكن أصح تلك الروايات التي تداولت في كتابات المؤرخين ، أن قبيلة عثمان قد نزحت من أواسط آسيا مع زحف المغول وعبر سيرها داخل الأناضول فوجئت بمشهد معركة تجري أمامها ، فقرر زعيم القبيلة أرطغرل[٥] والد عثمان مساعدة الجيش الأضعف الذي كان على وشك الانكسار ، حيث تبين له بعد ذلك أن قائد ذلك الجيش كان أحد الأمراء المحليين في منطقة جنوب شرقي بحر مرمرة والذي كافأ ارطغرل بالسماح له بالاستقرار هو وقبيلته في الأرض التي جرت فيها المعركة ، ولم يمر وقت طويل حتى توفى أرطغرل وتولى ابنه عثمان[٦] الذي سيطر على أراضي إمارة ذلك الأمير ذاتها بعد ذلك واستخدمها مركزا للتوسع باتجاه أوروبا مدفوعا بالرغبة في ممارسة الجهاد[٧].

وقد اتفق معظم المؤرخين على أن عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م هو عام استقلال إمارة آل عثمان ، ففي هذا العام أرسل السلطان السلجوقي الحاكم في الأناضول علاء الدين الي عثمان بك الطبل والعلم والشرابة كعلامات سلطنة ، وعندما قام المغول بعزل وحبس علاء الدين انتهت الدولة السلجوقية من الناحية الفعلية واجتمع غزاة الثغور و أمراء التخوم وقرروا مبايعة عثمان بك الملقب بالغازي على السلطنة[٨].

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا ، لماذا حظيت إمارة آل عثمان بهذا التطور فائق السرعة دون باقي إمارات الأناضول لتصبح في أقل من مائة عام إمبراطورية كبرى؟؟

وإذا أردنا الإجابة على هذا السؤال لابد أن نضع في اعتبارنا العامل الجغرافي كأحد العوامل الرئيسة في اكتمال نضوج هذه الدولة من الناحية السياسية والعسكرية ، فقد شغلت هذه الإمارة أول ما شغلت منطقة حدودية مع الدولة البيزنطية في غربي الأناضول وكانت هذه المنطقة من مناطق الثغور التي طالما جاهد فيها المسلمون ضد أعدائهم النصارى التابعين للدولة البيزنطية الذين يعتبرون حجر عثرة أمام المسلمين منذ صدر الإسلام لنشر الدين شرقي أوروبا.

ومن الثابت أن الإمارات التي نشأت على مناطق الحدود في الأناضول تطورت أسرع من إمارات الداخل ، فوضع العثمانيين على الحدود البيزنطية جعلهم يحملون عبء الجهاد والقتال المستمر ، وقد اجتذبت تلك الحروب العديد من المسلمين من أماكن مختلفة لممارسة الجهاد مع إخوانهم وخاصة مسلمي الإمارات التركية الأخرى داخل الأناضول ، وقد أدى هذا التطور السريع للجيش العثماني والذي أدى بدوره إلي انتصار العثمانيين الباهر والسريع على العدو وتحقيق تقدمات

في شتى الميادين ، هكذا ازدادت مع الوقت رقعــة الإمــارات العثمانيــة وزادت مواردها ودخولها.

مقومات التوسع العثماني :

من الضروري الإشارة إلي أن التوسع العثمــاني علــى حســاب الدولة البيزنطية ، لم يكن بغرض النهب أو توسيع رقعة الدولة وإنما كان بهدف الاستيطان ونشر الدين الإسلامي في هذه المنــاطق الجديــدة مــن العالم.

وقد أشار بعض المؤرخين من أمثال كيس (F.Giese) الي الدور المهم لدعاة الدين الإسلامي والمتصوفين في تأســيس الدولــة العثمانيــة وتوسعها وقد خص بالذكر دور الأخيين – المشتقة من كلمة أخي العربية – وهم جماعة من أهل الحسبة والباعة والتجــار اشــتهروا بالاســتقامة والجود كانوا يراقبون السوق ويمنعون المظالم ، لذا اكتسبوا محبة الناس في هذا المجال مما ساعد على نشر الإســلام فــي البقــاع المفتوحــة[٩] كانتشاره في شرق آسيا وغرب أفريقيا عن طريق المعاملات التجاريــة ، ويقول ب.ويتك (P.Witek) بأن الدولــة العثمانيــة تحمــل خصــائص وصفات الدولة الغازية ، وأن العثمانيين استطاعوا بمــرانتهم وتجــربتهم وخلفيتهم في موضوع الثغور وبالمسامحة الكبيرة التي عاملوا بها ســكان المناطق التي فتحوها تأمين سرعة امتزاج هؤلاء السكان معهم[١٠].

أما مؤرخو البلقان وفي مقــدمتهم أوركــا (Iorga) فيــرون أن الأسلوب المحافظ والتوحيدي للدولة العثمانية ساق القرويين والجنود فــي أوروبا الذين ملوا وسأموا جو الفوضى والإرهاب الذي يعيشون فيه إلــى الاستسلام جماعات وفرادى إلي الدولة العثمانية دون أي تردد ولاســيما

بعد أن لاحظوا أنهم يستطيعون الاستمرار والبقاء في دينهم وثقافتهم وحضارتهم[11].

كانت الدولة العثمانية في الطور الأول من نشأتها تحمل صفات الدولة الإسلامية في صدر الإسلام ، حيث حمل المجاهدون الإسلام على كهولهم يضعونه حيث يضعون رحالهم ، وبذلك بدأ الإسلام الانتشار في أوروبا من جديد بعد أن توقف الفتح الإسلامي في غرب أوروبا بعد معركة بلاط الشهداء في أوائل القرن الثاني الهجري.

وقد سهل اندماج المسلمين في شرق أوروبا مع أهالي البلاد الأصليين ودخول الكثير منهم في الإسلام من سهولة السيطرة العثمانية السياسية والعسكرية على تلك البقاع ، وقد زاد من سهولة تلك السيطرة النزاع السياسي القائم بين دويلات شبه جزيرة البلقان بالإضافة إلى الاضطهاد المذهبي الذي عانى منه الكثير من أهالي تلك البلاد ، فلقد كان ملك المجر(لوديفج) على سبيل المثال متعصبا أشد التعصب للمذهب الكاثوليكي الذي يدين به ، وبينما كان يفرض مذهبه بالعنف والقتل على البلقانيين الأرثوذكس ، كان الفتح العثماني يمارس للحرية الدينية والوجدانية وتسامح في هذا الخصوص إلي أبعد الحدود ، ففضل أهالي تلك البلاد حكم العثمانيين على غيرهم ، فلم يبدوا أي مقاومة ، فساعد ذلك على سهولة اقتحام المدن والقلاع[12].

وكانت نفس هذه النقطة ذات صلة قوية بما حققه العثمانيون من نجاحات على المستوى التوسعي والاستيطاني في البلدان غير الإسلامية التي خضعت لسلطانهم فلم تخضع قرية أو مدينة للحكم العثماني إلا وتقبله أهلها بسهولة ويسر لما وجدوا فيه من مميزات ، ودخل كثير منهم في

الإسلام بل والتحق الكثير منهم في الوظائف الحكومية العثمانية بدون أدنى تمييز وتفرقة بين العناصر والقوميات المحلية .

إن الحرية التي سمح بها العثمانيون ليست إلا تطبيقا لقاعدة شرعية إسلامية ومبدأ إسلامي ، ولقد حصل الذميون الذين اعتنقوا الدين الإسلامي على كل حقوقهم كمسلمين متساويين في الحقوق والامتيازات مع أي مسلم آخر سواء أن كان تركيا أو غير تركي ، ولا شك أن هذا الموقف أحدث لدى غير المسلمين تأثيرا ايجابيا والأبطال من أصول مسيحية ليسوا إلا نتيجة من نتائج هذا الموقف[١٣].

ولقد شهد كثير من المؤرخين الغربيين على أن التسامح الديني والمذهبي الذي تحلت به الدولة العثمانية في مختلف عهودها كان عاملا مهما من عوامل الاستقرار السياسي الذي حققته للشعوب التي خضعت لسلطانها ، بل كان سببا مهما من أسباب سهولة خضوع تلك الشعوب للحكم العثماني.

فيقول روبير منتران : (إن بعض جوانب العالم العثماني في ذلك العصر يقدم استشرافا للدولة الحديثة ذلك أن العاهل مقيد في ممارسة سلطاته ليس فقط بالشريعة وإنما أيضا بالقانون العرفي للشعوب الخاضعة)[١٤].

ولقد استطاعت الدولة العثمانية على مر الزمن جراء سياستها الحكيمة من تثبيت أقدامها في البلقان إلي جانب نشر الإسلام بسلامة وسهولة ، ومن تلك السياسات التي اتبعتها الدولة العثمانية نقل المهاجرين من مناطق الأناضول القريبة وتوطينهم المناطق المفتوحة حديثا بالبلقان ، وقد أسفرت هذه السياسة عن تفريغ تلك المناطق من المقاومة نهائيا بالإضافة إلي تأمين ظهور العثمانيين. ولما تقدمت الفتوحات العثمانية فيما

بعد من تراقيا إلي مقدونيا وبلغاريا زاد العثمانيون من عملية التوطين وأصبحوا ينقلون الهجرات من أماكن مختلفة في الأناضول إلي الروملي (البلقان) ، وفي نفس الوقت ينقلون الأهالي من بعض المناطق التي يتم فتحها ويوطنوهم بالأناضول ، وبهذه الطريقة خلال قرن ونصف من الزمان أصبحت في البلقان مناطق إسلامية تماما بفضل المؤسسات العلمية والاجتماعية التي انتشرت في المدن والقصبات(١٥).

وهكذا اتضح من تلك السياسات المتبعة من قبل العثمانيين مدى وعيهم بطبيعة الشعوب بالإضافة إلي اتخاذهم منهجا ليس عشوائيا في فتوحاتهم ، واتضح أيضا أن هؤلاء الفاتحين لم يكونوا عسكريين مجردين من مظاهر الحضارة كما ادعى البعض ، وإنما كانوا مسلحين بالمقومات اللازمة لإنشاء إمبراطورية حضارية استطاعت استيعاب ما سبقها من حضارات وأدارتها في فلكها لعدة قرون من الزمان.

وفي مقارنة سريعة نستطيع بيان الهوة الواسعة بين الفتوحات العثمانية وما أثمرته وبين الاحتلالات العسكرية التي لم تخلف سوى الدمار والخراب ولم تمكث في عمر الزمن سوى النذر اليسير. فمن الغزاة من اعتنق الإسلام كالعثمانيين ولكنه ظل على جاهليته وبربريته فلم يفرق بين المسلمين وغيرهم في التقتيل والتدمير ، ولنا في تيمورلنك(١٦) خير مثال ، ذلك الحاكم المسلم الذي اجتاح العالم من أواسط آسيا وامتد نفوذه من الهند إلي البحر المتوسط ولكن لم تقم دولته يوما من أجل دين أو قيم وإنما قامت على الخراب والدمار وإبادة البشر ، فلم يحتل مدينة وإلا وخربها وأضرم فيها النيران وأتى على ما بها ، فاحتل دلهي ودمرها عن آخرها فلم يقم لها قائمة إلا بعد قرن ونصف من الزمان ، واحتل بغداد ودمرها وأحرق بيوتها وقتل في يوم واحد من أهلها أكثر من مائة ألف

إنسان ، ودخل دمشق وأضرم بها النيران ثلاثة أيام حتى أتى عليهـا ثـم استعد لمحاربة الدولة العثمانية فوقعت بينه وبين السلطان بايزيـد يلـدرم واقعة هائلة تسمى أنقرة عام ٨٠٤هـ/١٤٠٢م هزمه فيها هزيمة ساحقة لضخامة جيشه الذي تألف من ٣٠٠ ألف جندي ، ووقع بايزيد في الأسر ثم مات.

وقد مات تيمورلنك بعد هذه الواقعة بسنوات قليلة ، فما ان مـات حتى ذهبت كل الأراضي التي اكتسحها أدراج الرياح ولم تعمر مملكته إلا القليل ولم تذكر في التاريخ إلا مقرونة بالدمار والخراب التـي خلفتـه ، وعلى العكس تماما فبعد الهزيمة الثقيلة التي منيت بها الدولـة العثمانيـة وسقوطها في براثن تيمورلنك تعافت سريعا وعادت أقوى مما كانت عليه في سنوات معدودات ، حتى انه لم يمر نصف قرن على هذه الكارثـة إلا وافتتحت القسطنطينية حاضرة البيزنطيين القوية على يد السلطان محمـد الفاتح عام ١٤٥٣م.

هكذا ومن هذه المقارنة نجد أن القوة العسكرية المهولة التي تمتع بها تيمورلنك لم تزد في عمر دولته ولم تكـن سـببا فـي اسـتمرارها وسيطرتها ، كما كانت دولة جانكيز خان وهولاكو من قبل ، أما الدولـة العثمانية التي تحلت بالسمات الحضارية وعوامل الاستمرار فقـد مكثـت بمقدار ما أفرزته من نتاج حضاري.

ولقد أدى الظرف السياسي الملائم في المنطقة بشكل عـام وفـي العالم الإسلامي بشكل خاص إلى ظهور الدولة العثمانية كدولـة عظمـى قوية مسيطرة ، قادرة على القيادة لملئ ذلك الفراغ السياسي الحادث على الساحة الإسلامية والناجم عن سقوط دولة الخلافة العباسية المهيمنة على المشرق ، وكذا دولة سلاجقة الروم – التي تبنت سياسة الجهاد ضد الدولة

البيزنطية – على يد المغول ، ولم تظهر أية دولة قوية في المشرق عدا دولة المماليك التي استطاعت دحر المغول ، ولكنها استمدت قوتها بعد ذلك من إستراتيجية موقعها في مصر والشام حيث مرور طريق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، ولذلك فان انتقال هذا الطريق إلى رأس الرجاء الصالح على يد البرتغاليين في نهاية القرن الخامس عشر قد أدى إلي إضعاف القوة السياسية والعسكرية لدولة سلاطين المماليك مما أدى إلي عجزها عن حماية أراضيها والأماكن المقدسة الواقعة تحت حمايتها من الاعتداءات الخارجية وخاصة أمام البرتغال ، مما مهد لضرورة شغل دولة إسلامية قوية لهذا الفراغ الناجم عن اضمحلالها ولم تكن تلك الدولة القوية سوى الدولة العثمانية.

أسباب التوجه العثماني شطر المشرق العربي :

يجب علينا استعراض تلك الأسباب والدوافع التي مهدت لسيطرة الدولة العثمانية على المشرق العربي وشغل ذلك الفراغ السياسي المشار إليه. فان الدولة العثمانية في أوج عظمتها بعد فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م ، لم تفكر مطلقا في السيطرة على المشرق العربي ، والدليل على ذلك السياسة السلمية والعلاقات الودية القائمة بين الدولة العثمانية ودول المشرق العربي وخاصة دولة سلاطين المماليك والمذكورة في معظم المصادر التي وصلت إلينا.

ففي الوقت الذي تولى فيه السلطان الأشرف اينال مقاليد الحكم في مصر ، كان السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح) مشغولا آنذاك بفتح القسطنطينية(١٧) ، ولما أفاء الله عليه بالفتح والظفر أرسل إلي سلطان مصر يبشره بهذا النصر الذي يعتبر انتصارا للإسلام ، وقد وصل القاصد العثماني إلي مصر يوم ٢٣ شوال سنة٨٢٧ للهجرة لتهنئة اينال بالملك

وإخباره بما منّ الله عليه من فتح مدينة استانبول ، وجاء القاصد المذكور ومعه أسيران من عظماء القسطنطينية وطلع بهما إلي السلطان ، ودقت البشائر وزينت القاهرة بسبب ذلك أياما وزينت الحوانيت والأمكنة وأمعن الناس في الزينة ، ويبلغ من تبجيل محمد الثاني لسلطان الجراكسة ، واحترامه وتقديره له أنه بدأ رسالته إليه بقوله (الملكي السلطاني الأشرفي الأبوي الأعطفي ، ضاعف الله تعالى ملكه وسلطانه وأفاض على العالمين بره وإحسانه)[١٨].

ويذكر ابن اياس أن السلطان العثماني قد أرسل إلي الخليفة في القاهرة يستعطفه ليرسل إليه تقليدا بالبلاد المفتوحة على يديه ، فأرسل له الخليفة بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وما سيفتحه الله تعالى على يديه من البلاد الكفرية[١٩].

وقد استمرت هذه السياسة السلمية والعلاقات الودية تجاه المشرق العربي عامة حتى أواخر القرن الخامس عشر ، فما الذي أدى اذن بالدولة العثمانية الاتجاه شطر المشرق العربي بسياستها التوسعية؟؟

لقد اختلف المؤرخون في تفسير هذا التغيير للسياسة العثمانية تجاه المشرق العربي في الربع الأول من القرن السادس عشر.

فالرأي الأول يقول أن الدولة العثمانية كانت قد بلغت مرحلة التشبع في فتوحاتها الغربية بنهاية القرن الخامس عشر وكان من المتعذر عليها التوغل في أوروبا بعد المدى التي وصلت إليه عندما ارتقى عرشها السلطان سليم الأول[٢٠] ، ولكن هذا السبب غير مقبول من بعض الباحثين على علاته ، لأن السلطان سليمان القانوني[٢١] الذي خلف أباه سليم قد أوغل في فتوحاته في قلب القارة الأوروبية فاستولى على بلجراد[٢٢]

واكتسح سهول المجر وانتزع سبعة أعشار من النمسا ووصل إلي أسوار فيينا ، وقد واصل خلفاؤه سياسة التوسع في الجبهة الأوروبية[٢٣].

وهناك فريق آخر من المؤرخين يربط هذا التحول العسكري العثماني نحو الشرق الإسلامي بالأحداث التي كانت تدور وقتذاك في المشرق العربي أو حول أطرافه وتتمثل هذه الأحداث في قيام الدولة الصفوية الشيعية في فارس بغزو العراق ومحاولتها نشر المذهب الشيعي في المناطق المجاورة ، مما أرغم العثمانيين على الخروج لحماية آسيا الصغرى والعالم السني عامة من الزحف الشيعي[٢٤].

وإذا اعتبرنا أن هذا الرأي على جانب كبير من الصواب فمن الصعب أن نتخذه السبب الوحيد الذي دفع العثمانيين بكل طاقتهم الى المشرق العربي على هذا النحو.

ويرى المؤرخ أرنولد توينبي (Toynbee) الذي يتبنى هذا الرأي أنه حتى نشوب النزاع العثماني الفارسي كانت آسيا الصغرى وفارس عالما واحدا تسوده الثقافة الفارسية ، وفي داخل هذا العالم كان المذهب السني يعيش في سلام جنبا إلي جنب مع المذهب الشيعي ، ولكن حركة الشاه إسماعيل الصفوي في محاولته لنشر المذهب الشيعي بين القبائل التركمانية شرقي الأناضول قد أثارت السنة هناك مما أثار المسئولين في استانبول ، فقام النزاع بين الدولتين الكبيرتين السنية والشيعية.

ويعتقد توينبي أن الصراع بين هاتين الدولتين الكبيرتين يصعب حصره داخل فارس وحدها أو آسيا الصغرى كذلك ، بل لابد أن يمتد إلي المناطق المجاورة ، وبذلك يعتبر توينبي أن استيلاء العثمانيين على الشام ومصر والعراق بل حتى على اليمن ليس سوى حلقة من حلقات الصراع بين العثمانيين والصفويين[٢٥].

وإذا أخذنا في الاعتبار ذلك الرأي لابد ألا نغفل عن السبب الثالث وهو الأقرب بشكل كبير إلي الصحة ، فيرى الفريق الثالث من المؤرخين أن هذا التحول العسكري للدولة العثمانية في أوائل القرن السادس عشر يرتبط بأحداث عالمية وقعت حول أطراف العالم العربي سواء الشرقية أم الغربية ، ويقصد بهذه الأحداث زحف الاستعمار الأوروبي على جناحي العالم العربي وتصدي العثمانيين لهذا الزحف المتمثل في الدولتين الأقوى حينئذ أسبانيا والبرتغال.

ويرى أصحاب هذا الرأي أن السلطان سليم الأول كان أكثر تفهما للوضع الدولي وأخطاره من الشاه إسماعيل الصفوي[٣٦] الذي ما لبث أن تحالف مع البرتغاليين الذين استطاعوا الوصول للخليج الفارسي والسيطرة على بعض أجزائه ، وحاول عن طريق هذا التحالف تدمير القوة العثمانية ولم يضع في حسبانه كما فعل السلطان سليم وضع الدول الإسلامية الأخرى الواقعة في مرمى البرتغاليين الذين حركهم تعصبهم الصليبي إلي جانب مصالحهم الاقتصادية في القضاء علي هذه الدول قضاء مبرما بل واحتلالها وتنصير أهلها.

وهكذا يتضح في النهاية أن العاملين الأخيرين قد تضافرا لينتج عنهما التحول الشديد في الوجهة العسكرية العثمانية مع مطلع القرن السادس عشر والتي أدت لوقوع العالم العربي تحت السيطرة العثمانية.

آراء في ايجابيات وسلبيات السيطرة العثمانية على العالم العربي :

أما عن ملابسات السيطرة العثمانية على العالم العربي ونتائجها ، فقد تطرق لها كثير من المؤرخين والباحثين وكانوا بين مؤيد ومعارض لها ، فتارة يزكيها البعض ويثني عليها ، وتارة أخرى يتحامل عليها البعض ويصفونها بأوصاف شائنة كما فعل الكثير من الأساتذة الكبار من

أمثال الدكتور/ جمال حمدان الذي ساوى بين الفتح العثماني والاستعمار الأوروبي ، لذا يجب أن نفند بعض تلك السلبيات التي تطرق إليها الباحثون ، وعن طريق تفيد تلك الآراء يظهر لنا هل كانت فعلا منصفة للحقائق التاريخية؟ أم هي محض افتراءات؟

ولقد تبنى د.جمال حمدان معظم الآراء السلبية التي وجهت للدولة العثمانية وتحدث عنها في كتاباته ، وهكذا نستطيع عن طريق كتاباته معرفة معظم تلك السلبيات التي وجهها الباحثون والمؤرخون للدولة العثمانية ونتائج السيطرة العثمانية على العالم العربي.

يقول د. جمال حمدان (على أن الاستعمار الديني المسيحي لم يكد ينحسر عن الساحل الجنوبي حتى ورثه استعمار ديني آخر وإن اختلف الدين. فمن الساحل الشمالي مرة أخرى من الأناضول جاءت موجة الاستعمار التركي ، وهو نوع مجير من الاستعمار لأنه كاستعمار ديني اتخذ من وحدة الدين كغطاء يخفي به حقيقته كاستعمار سياسي لا شك فيه)[٢٧].

لا نلوم د. جمال حمدان على هذا الكلام كثيرا فقد كتبه في وقت سادت به القوميات وكان لها الأولوية القصوى على أي نزعة أخرى ، ولكننا إذا سلمنا بهذا الكلام واعتبرنا أن الفتح العثماني احتلالا لا يختلف عن الاحتلال المسيحي الذي ورثه إلا في الدين ، إذن فهو احتلالا قوميا في وقت لم تبد فيه أي نزعات قومية أو عرقية بمفهومها الحديث ، أي أنه احتلال تركي لبلاد عربية ، فهل لنا أن نطبق هذا الكلام على الفتح العربي الإسلامي للأندلس وبقائه بها ثمانية قرون ، فهل كان احتلال عربي لبلاد ذات عرق لاتيني؟ وإذا سميناه احتلالا ، فهل كان بعد ذلك جلاء بعد خروج العرب من الأندلس؟ وإذا كان هذا هو مفهوم الاحتلال

فان خروج العرب من الجزيرة العربية أصلا لا يصح ، ويعتبر إذن غزوا واحتلالا وليس فتحا ونشرا للدين القويم وضمان حرية العبادة والاعتقاد.

يقول د.حمدان (أما من الناحية الحضارية فان الاستعمار التركي نوع شاذ من الاستعمار. فإذا كان الاستعمار السياسي بالمفهوم الحديث هو سيطرة حضارة راقية على حضارة متخلفة ، فقد كان العكس هو الأساس في الاستعمار التركي فقد بدأ كقوة استبسية محاربة بحتة ، قوة فرسان هدامة من الرعاة بلا حضارة ولا جذور تاريخية بل وبلا وطن أم محدد. هذا بينما كانت الإمبراطورية تتألف من شعوب عريقة مستقرة وحضارات زراعية راقية)[28].

وهنا يضع د.حمدان قاعدة لا أساس لها من الصحة ألا وهي أن الاستعمار لابد وأن يكون لدولة متقدمة أو حضارة راقية على حضارة أخرى متخلفة. ولكن إذا نظرنا في التاريخ نجد الكثير والكثير من الحضارات الراقية قد استعمرت بل وانتهت على يد حضارة أخرى ناشئة ليس لها أية أصول تاريخية ، وأفضل مثال على ذلك العرب الذين لم يكونوا قبل الإسلام سوى مجموعات متنقلة من الرعاة داخل الجزيرة العربية وعلى أطرافها ، ولما أعزهم الله بالإسلام خرجوا فاتحين للدنيا ، فلم يمض القرن الأول من الإسلام إلا ودخلت في ظلهم حضارات عريقة وموغلة في القدم من أمثال الفرس والرومان.

وأما وصفه للأتراك بأنهم قوة من الفرسان والرعاة الهدامين ، فهل القوة الهدامة هي التي ينشأ عنها ازدهارا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية واستقرارا سياسيا وتطورا في العمران وغيره ، أم هي قوة

حضارية بناءة تخلف عنها الكثير من الأوجه الحضارية التي نرى بعضها قائما حتى الآن.

ويذكر الدكتور/ حمدان في أثناء استعراضه للحياة الاقتصادية للدولة العثمانية وما أنتجته على الصعيد الدولي خطأ تاريخيا فادحا بقوله : (وقد فرض الأتراك وقد أصبحوا سادة جميع الطرق البرية بين الشرق والغرب سياسة جمركية غبية ولا أخلاقية على أحسن تقدير ، ومن الثابت تاريخيا أن ابتزاز الأتراك لتجارة الأجانب والتجارة العابرة كان أكبر الأسباب التي دفعت الغرب وأوروبا المسيحية دفعا إلي البحث المستميت عن طريق بديل إلي الشرق حتى جاءت بالفعل الضربة القاصمة وهي طريق رأس الرجاء الصالح وكان طبيعيا أن يعني هذا لا الجمود والتوقف فحسب وإنما التدهور الحضاري كذلك)[٢٩].

وهذا الكلام بالطبع يتنافي مع الحقائق التاريخية الثابتة ، لأن طريق رأس الرجاء الصالح لم يكتشف في وقت سيطرة الأتراك على مصر والشام وإنما اكتشفه البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر أي في وقت سيطرة المماليك. ثانيا : لم يفرض الأتراك سياسة جمركية غير أخلاقية بعد سيطرتهم على مصر والشام لأنه ببساطة قد تم تفعيل جميع الاتفاقيات التجارية الموقعة بين مصر وبعض الدول الأوروبية مثل جمهورية البندقية في عهد سلطنة المماليك ، وقد تم إبرام الكثير من المعاهدات والاتفاقيات الجديدة بين السلطان العثماني وفرنسا مثلا لتسهيل حركة التبادل التجاري وحرية التجارة بل وتخفيض رسومها ، وقد أدت تلك السياسة من تحقيق الكثير من النفع والانتعاش الاقتصادي الذي كان ركوده سببا في تدهور الحالة الاقتصادية لسلطنة المماليك.

ويقول د.حمدان (لكن القناع الديني الوهمي الذي خدع العالم العربي في البداية لم يلبث بعد قليل أن تمزق فكان رد الفعل القومي عنيفا في النهاية)[٣٠].

ثم يستدرك بقوله (لقد كان الاستعمار التركي يقوم على نوع من التفرقة العنصرية بين التركية أو الطورانية (الجنس السيد) من ناحية والعرب أو الفلاحين كجنس محكوم- ولا نقول حتى كمواطن من الدرجة الثانية – في الناحية الأخرى)[٣١].

ويقول (أما دينيا فقد قامت الإمبراطورية الدينية التركية على سياسة طائفية عاجزة ضيقة الأفق هي سياسة الملة التي تفاقمت خاصة في أخريات الإمبراطورية وقد نشأت سياسة الملة نتيجة لقصر نظر الاستعمار التركي من ناحية وضعفه وعجزه أمام ضغط القوى الأوروبية من ناحية أخرى فرغبة في سياسة فرق تسد حدد الأتراك مسئولية الأقليات الدينية في زعاماتها وقياداتها الطائفية فبدأت من هنا تتبلور شخصياتها داخل جسم الدولة)[٣٢].

وهكذا نرى ذلك التحامل الشديد القائم على غير أسس تاريخية ، وهي أقاويل مفتراة على الدولة العثمانية بشهادة المؤرخين الغربيين ولا نقول المؤرخين المسلمين.

<u>أولا</u> : إن الدولة العثمانية لم تقم أبدا بالتفرقة العنصرية بين أية أجناس داخل الإمبراطورية خاصة الجنس العربي ، وخير دليل على ذلك ما هم به السلطان سليم الأول الذي بلغت عنده القومية الإسلامية مداها حتى انه حاول أن يجعل اللغة العربية هي اللغة الإسلامية واللغة القومية المعتمدة للأتراك أنفسهم[٣٣] أي تعريب الدولة بالكامل

ولم يمنعه من تحقيق هذا المشروع إلا المفتي الذي كان لــه نفــوذ كبير على السلطان العثماني نفسه.

بل إن القول أن الجنس التركي كان الجنس السيد للإمبراطورية فهو من أكبر الأقاويل جحودا وظلما. يقول روبير منتران (قد كتب بوســبيك الذي أقر أن بوسع ابن صياد سمك أو فلاح أو راع أن يصــبح صــدرا أعظما استنادا إلي قدراته وحدها ، إن من يتمتــع بالشــرف الأول بــين الأتراك بعد السيد الأكبر هو الذي لا يعرف أصله ولا أصل أبيه وأمــه ، كما أردف وهكذا فان كل إنسان يثاب بحسب جدارته والمناصب يشــغلها رجال قادرين على شغلها)[٣٤].

ويدلنا الإحصاء الذي أورده جلزر على أن الصدور العظام الذين تعاقبوا على الحكم خلال ازدهار الإمبراطورية (١٤٥٣-١٦٢٣م) كــانوا ثمانية وأربعين ، خمسة منهم فقط يجري في عروقهم الدم التركــي أمــا الباقون فكانوا : (إحدى عشر ألبانيا ، إحدى عشر صقليا ، ستة يونانيين ، واحد جركسي ، واحد إيطالي ، واحد أرميني ، واحــد مــن جورجيــا ، عشرة من أصول غير معروفة)[٣٥].

أما قول د.حمدان أن الدولة العثمانية قامت على أسس طائفيــة ، ونعت سياسة الملة بأنها ضيقة الأفق ، فهذا أبعد ما يكون عن الصــحة ، ولو حدث هذا لما استطاعت تلك الإمبراطورية التي ضمت بين أرجائهــا الكثير من الأعراق والملل والطوائف أن تجمع بينهم في ظــل اســتقرار سياسي واجتماعي عدة مئات من السنين ، فان الدولة الأموية التي قامــت في صدر الإسلام مع قوتها العسكرية والسياسية والاقتصــادية الكبيــرة آنذاك لم تستطع أن تعمر كثيرا ، ذلك لأنها قد قامت بتفضــيل العنصــر العربي على باقي عناصر الدولة الإسلامية في الوظائف والقيادات ، وقد

أدى هذا في النهاية لتبني الموالي من الفرس للدعوة العباسية المناهضة للحكم الأموي والتي كانت سببا مباشرا في سقوط هذه الدولة وانهيارها.

ولم تظهر ردود الأفعال القومية داخل الإمبراطورية إلا في أواخر عهدها كرد فعل طبيعي ومباشر لمحاولة جماعة الاتحاد والترقي التي سيطرت على السلطة من فرض الهوية التركية وجعلها متميزة عن باقي الهويات في الإمبراطورية ، وهذا لم يحدث إلا بعد تنحية الدور الديني وتبني الحركة القومية التي سادت حينئذ في أوروبا وتبني مختلف شعاراتها مثل العدالة والحرية والمساواة ، وهي نفس شعارات الثورة الفرنسية التي اندلعت في أواخر القرن الثامن عشر.

ولكن قبل سيطرة جماعة الاتحاد والترقي على السلطة في عهد السلطان عبد الحميد الثاني[٣٦] حتى عام ١٩٠٨م لم تجنح الإمبراطورية أبدا للتميز القومي أو العرقي بين عناصرها ، بل على العكس فقد تبنى السلطان عبد الحميد الثاني سياسة الجامعة الإسلامية لجمع شتى شعوب الإمبراطورية تحت ظل الإسلام الذي لا يفرق بين عربي وأعجمي. ولقد أثبتت السياسات القومية فشلها في نهاية المطاف بالحروب الفتاكة التي نشبت بين مختلف القوميات في أوروبا في الحربين العظميين وكادت أن تؤدي إلي هلاك البشرية ، لذلك فإن وحدة الدين الذي اتخذته الإمبراطورية العثمانية شعارا لها حتى أخريات أيامها كان أساسا ودعامة رئيسية من أسباب طول عمرها وبقائها ، فهي أطول دول الإسلام عمرا. يقول المؤرخ شارل بروكلمان :

(إذا كانت الدولة العثمانية لا تتدخل ، من حيث المبدأ في قضايا الدين ، فقد انتهت في الواقع إلي أن تصبح ملجأ للحرية الدينية بالنسبة إلي اليهود المطرودين من اسبانيا والبرتغال عند منبلج القرن السادس عشر

فما وافت سنة ١٥٩٠م على وجه التقريب ، حتى بلغ عدد سكان الحي اليهودي في استانبول نحوا من عشرين ألفا)[٣٧].

وهذه الحرية الدينية لم تشهد في وقتها مثيلا ، فأكبر دولتين حينئذ اسبانيا والبرتغال لم يدخرا جهدا في اضطهاد من ليس على ملتهم في داخل أرضيهم وفي خارجها ، بل إنهم اضطهدوا من ليسوا على مذهبهم الكاثوليكي وفعلوا بهم الأفاعيل.

يقول أليكس جورافسكي في كتابه الإسلام والمسيحية : (قد ميزت السلطات العثمانية رعاياها المسيحيين في ملل مستقلة مخضعة إياهم ليس لسلطة البطاركة الروحية فحسب ولكن لسلطتهم الزمنية أيضا ، وبهذا الشكل أصبحت (المجالس الملية) وطوائفها كيانات كنسية سياسية ذات سمات وملامح متمايزة ، أي أن السلطة المدنية والشئون الاجتماعية والاقتصادية والثقافية أوكلت كليا إلي ما سمى (بالمؤسسة الدينية) أي هيئة العلماء لدى المسلمين والبطاركة والأساقفة لدى المسيحيين والحاخسام الأكبر لدى اليهود وبمرور الوقت تعاظم ضغط مختلف الكنائس القومية والاثنية في الولايات والمناطق المختلفة وتنامى عدد الملل التي تدير شئونها الذاتية بصورة رسمية)[٣٨].

وهكذا فان سياسة الملة التي اتبعتها الدولة العثمانية لم تكن قصيرة النظر ، بل كانت سياسة تسامحيه إلي أبعد مدى مع الطوائف غير المسلمة في الدولة التي تضاعفت بشكل ملحوظ في ظل هذه السياسة حتى أصبحت عبئا على كاهل الدولة في القرن التاسع عشر مع ضعف الهيكل الإداري للدولة.

وأخيرا يتطرق الدكتور/ حمدان إلي أكثر المواضيع أهمية بالنسبة للسيطرة العثمانية على العالم العربي ، وهذا الموضوع ذو أهمية خاصة لدى الكتاب الذين يتبنون الفكر القومي ، وهو أن الهيمنة العثمانية على العالم العربي هي سببا مباشرا لتخلف هذا العالم عن الركب الحضاري وعزله بل والزج به في أحضان المستعمر الأوروبي.

فيقول د.حمدان : (والواقع أن الاستعمار التركى هو الذي مهد الطريق – حضاريا وتكنولوجيا – للاستعمار الأوروبي في العالم العربي فلقد رأينا أن العالم العربي الإسلامي وقف إلي ما قبل قدوم الأتراك إزاء العالم الأوروبي المسيحي موقف الند للند في حالة زهو عسكري. ومنذ الاستعمار التركي فقط بدأ الافتراق بين المستوى الحضاري والفني للغرب والعرب : الغرب إلي أعلى والعرب إلي أسفل . كان الاستعمار التركي نقطة الانعكاس في المنحنى الحضاري وخط المستقيم بين تقدم الغرب وتخلف العرب)(٣١).

لو أن الهيمنه العثمانية هي سبب تخلف العالم العربي عن ركب الحضارة والتقدم ، فهل كانت الدولة العثمانية تسيطر على باقي أجزاء العالم الإسلامي الذي كان مستنيرا في العصر الوسيط ثم تخلف هو الآخر بدوره عن ركب الحضارة ؟ بل إن المغرب الأقصى لم يقع يوما تحت السيطرة العثمانية ، فهى الدولة العربية الوحيدة التي سلمت من تلك السيطرة بالإضافة إلي أجزاء من دولة عمان وسواحل الخليج العربي ، فلماذا لم تلحق المغرب بركب الحضارة الغربي؟

ولو سلمنا بافتراض أن الدولة العثمانية قد جثمت على روح الشرق ومنعته من التقدم والازدهار ، فلماذا تخلف أولائك عن الركب في الأندلس وخبت دولتهم بعد تلك الازدهار؟ ولماذا ضعفت دولة المماليك

بعد قوتها حتى كادت أن تقع فريسة للاستعمار الأجنبي لولا تدخل الدولة العثمانية؟ ولماذا انقسم المغرب العربي على نفسه قبل التدخل العثماني منذ القرن الثالث عشر وأصبح فريسة سهلة للمستعمر الأجنبي فوقعت الكثير من أراضيه لقمة سائغة للأسبان والبرتغاليين؟؟؟

فهل كان إذن العالم العربي كما يقول د.حمدان قبل قدوم الأتراك يقف موقف الند للند من العالم المسيحي؟ أم انه كان في حالة من الانهيار لم يسبق لها مثيل؟ إن كل الدلائل تشير إلي أن الحضارة العربية في مجملها كانت آخذة في الانحدار قبل قدوم الأتراك العثمانيين بفترة ليست بالقصيرة.

يقول أندريه ريمون : (إن انحدار المدن العربية كان سابقا للغزو العثماني فالمدن العراقية الكبيرة لم تسترجع قواها إطلاقا بعد الكارثة التي تمثلت في الغزو المغولي ويقول المؤرخ المصري المقريزي في القرن الخامس عشر : بغداد قد تهدمت لم يعد هناك جامع ولا مؤمنون ولا سوق غالبية قنواتها قد جفت ومن الصعب تسميتها مدينة). أما عن دمشق فيقول : (ذكر سوفاجيه أن قوات تيمورلنك قد نهبت المدينة عام ١٤٠٠م ثم عانت المدينة من الأزمة الاقتصادية التي شهدتها الإمبراطورية المملوكية وأضاف بأن للسلطان سليم لم يحتل في علم ١٥١٦م سوى مدينة أكثر من نصفها أطلال).

ويقول عن شمال أفريقيا : (أدى تفسخ دول المغرب الأوسط والشرقية إلي تشجيع المغامرات الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية).

(وفيما يتعلق بتونس فان القرن الحفصي الأخير كان يمثل مأساة طويلة الأمد وقد لاقى سكان تونس أسوأ معاملة حين احتلها الأسبان عام

١٥٣٥م حيث يقول المؤرخ ابن دينار أنه تم قتل نصف السكان وإخضاع ثلث آخر للعبودية).

ويستدرك بقوله : (ولا شك أن إمبراطورية قوية وموحدة مكان مجموعة دول تلهث من الإرهاق كان مفيدا للمدن التي ظلت تعاني منذ قرون من الزمان من آثار التدهور السياسي وفي الواقع انه من المنطقي أن يكون هذا هو ما حدث)(٤٠).

أما بالنسبة لمصر وعاصمتها القاهرة فقد أصابها التدهور الاقتصادي والاجتماعي على أثر تحول طريق التجارة العالمية عنها الي طريق رأس الرجاء الصالح في أواخر القرن الخامس عشر ، وهذا ينطبق على بعض مدن الشام والحجاز التي تقع على نفس هذا الطريق ، فقد أدى انقطاع العوائد الجمركية عنها إلي تدهورها بشكل سريع اقتصاديا واجتماعيا فلم تعد القاهرة وموانئ مصر والشام المطلة على البحر المتوسط والبحر الأحمر كما كانت منذ قرن من الزمان.

وهكذا رأينا أن العالم العربي لم يقف أبدا قبل قدوم الأتراك موقف الند للند من العالم المسيحي بل كان على شفا الانهيار والوقوع في براثن الاحتلال الصليبي لولا السيطرة العثمانية التي أدت إلي حمايته من الأخطار الخارجية ، بل وإنقاذه اقتصاديا أيضا.

يقول أندريه ريمون : (أدى الغزو العثماني إلي دمج الدول العربية داخل مجموعة موحدة متسعة للغاية امتدت من حدود المغرب إلي الحدود الإيرانية ومن الحدود الروسية إلي اليمن ، وكانت الإمبراطورية العثمانية بفضل اتساعها ووجودها على ثلاثة أرباع محيط البحر المتوسط هي أكبر بنيان سياسي عرفه الغرب منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية وكان يمكن لكل مواطن تابع للسلطان أن يتجول من الدانوب حتى المحيط

الهندي ومن بلاد العرب حتى المغرب وهو خاضع لنفس القوانين ونفس التنظيم الإداري وأن يتحدث بنفس اللغة ويستخدم نفس النقود وهي ظروف مواتية لحركة تبادل داخلية واسعة النطاق ، هذه السهولة في انتقال الأفراد والأموال اقتضت في الواقع تنمية التجارة الداخلية إلى حد كبير بين مجموعة دول متفاوتة للغاية وتمر عبرها منتجات شديدة التنوع وتمثل عنصرا فعالا في التجارة الدولية وفي نطاق هذا النشاط التجاري الواسع ازدادت حيوية العمليات الجارية داخليا إلى حد كبير بفضل ضخامة سوق الإنتاج والاستهلاك داخل الإمبراطورية وظلت هذه العمليات محتفظة بأهميتها الكبيرة في نهاية القرن التاسع عشر)[41].

ويقول : (أدى السوق الداخلي الضخم الذي تكون نتيجة لإنشاء الإمبراطورية إلى حدوث نشاط ورفاهية في المراكز التجارية الكبيرة وخاصة في الحواضر العربية وقد أدى هذا النشاط التجاري والرفاهية التي حققها إلى تنمية جهاز اقتصادي يمكن دراسته بالأرقام)[42].

الأثر الاستراتيجي للسيطرة العثمانية على العالم العربي من الناحية الشرقية :

وهكذا بعد تفنيد هذه الآراء استطعنا معرفة أهمية السيطرة العثمانية على العالم العربي ، وأن هذه السيطرة لم تعمل على انحداره وتخلفه بأكثر من العمل على تدعيمه وحمايته هذا إلى جانب الارتقاء به اقتصاديا والعمل على استقراره سياسيا واجتماعيا.

ولنا بعد ذلك أن نلقي نظرة على بعض جهود العثمانيين في حماية العالم العربي من الناحية الشرقية وأثر الدور العثماني على هذه المنطقة ، لما له من علاقات مترابطة وتأثير مباشر على المنطقة الغربية من البحر المتوسط وسياسة الدولة العثمانية في بلدان المغرب العربي.

كان الخطر الشيعي كما ذكرنا آنفا أحد العوامل الرئيسة التي غيرت الوجهة العسكرية للدولة العثمانية وجعلتها تتجه نحو الشرق ، وقد بدا أن هذا الخطر هو الآخر – كقوة ناشئة شرقي العالم الإسلامي – يريد السيطرة والتوسع ومنافسة الدولة العثمانية عسكريا واقتصاديا باعتبار الدولة الصفوية[٤٣] زعيمة العالم الإسلامي الشيعي.

وقد عمل العثمانيون على التصدي للصفويين ومذهبهم الشيعي الذي لم يشكل تهديدا سياسيا فقط للدولة العثمانية ، بل لأن الدعوة الصفوية الشيعية كانت تشكل تحديا أساسيا للمبادئ السنية التي كانت توجه الأسرات الإسلامية الحاكمة الكلاسيكية منذ عهد العباسيين[٤٤].

وقد ازداد الأمر سوءا في خلال شتاء عام (١٥٠٨– ١٥٠٩م) حيث استولى إسماعيل الصفوي على بغداد ومعظم جنوب غربي إيران وأجرى مذابح واسعة النطاق ضد السنة ودمر مزاراتهم ومساجدهم[٤٥].

ولكن رد السلطان بايزيد الثاني[٤٦] سلطان العثمانيين يومئذ لم يكن أكثر من حث إسماعيل على التوقف عن القيام بمثل هذه الإجراءات وطلب المساعدة من مماليك مصر ، فهذه المسالمة والموادعة التي كان يتحلى بها السلطان بايزيد تجاه الشيعة هي المسئولة عن تولي ابنه السلطان سليم العرش ، فقد ناصره الانكشارية وأرغموا والده على التنازل ورشحوا سليم باعتباره منقذا للإمبراطورية من الخطر الشيعي ، وكان هذا من أسباب توقف الفتوحات في أوروبا بعض الوقت ، ولذلك عمل السلطان سليم على تجديد الاتفاقيات المعقودة مع البندقية والمجر بوجه خاص ليؤمن الجبهة الأوروبية ، ويولي وجهه بعد ذلك شطر المشرق لمواجهة الشاه إسماعيل ، وقد وقعت المعركة الفاصلة بين الفريقين في سهول جالديران عام ١٥١٤م والتي انتصر فيها السلطان سليم الأول ، وعلى اثر

هذا الانتصار ضم سليم إلي ملكه الكثير من الأراضي الواقعة شرقي الأناضول لحماية أراضيه من المد الشيعي ، فقد ضم إليه ولايتي ديار بكر وكردستان ولحتل تبريز(٤٧) ولكنه قرر إخلائها بعد ذلك.

حقيقة أن السلطان سليم استطاع على أثر موقعة جالديران أن يحتل مناطق واسعة في الشرق إلا انه لم ينجح في القضاء على الصفويين قضاء مبرما ، لذلك فقد كانت سياسته بعد ذلك في تحالفاته وحروبه كانت رامية إلي دحر الصفويين وتقويض نفوذهم والعمل على الحد بقدر الإمكان من تدخلاتهم في البلاد السنية.

وكانت دولة المماليك التي تسيطر على كل من الشام ومصر من العوائق الكبيرة في حربه ضد الشيعة ومنعهم من بسط نفوذهم على الأراضي العربية. وقد ازدادت رغبة السلطان سليم في القضاء على دولة المماليك والسيطرة على مصر والشام لما رآه من ضعف المماليك الاقتصادي مما أدى بدوره إلي ضعفهم العسكري الذي من شأنه أن يسهل سيطرة الصفويين على مصر والشام.

وقد ذكرت المصادر أن الصفويين كانوا يبيتون النية فعلا لغزو مصر ، فيقول ابن اياس في حوادث عام ٩١٦ للهجرة الموافقة لعام ١٥١٠م :

(وفيه جاءت الأخبار من نائب البيرة بأنه قبض على جماعة من عند إسماعيل الصفوي وعلى أيديهم كتب من عند الصفوي إلي بعض ملوك الفرنج بأن يكونوا معه عونه على سلطان مصر ، وأنهم يجيئون إلي مصر من البحر ويجئ هو من البر ، فقبض نائب البيرة عليهم وبعث بهم إلي السلطان)(٤٨).

ويقول أيضا في حوادث عام ٩١٨هـ/١٥١٢م : (وفي يوم الخميس أرسل نائب سيس إلي السلطان عشرة رؤوس وعليهم طراطير حمرا وزعموا أنهم من عسكر الصفوي كانوا يفسدون في البلاد ، فقبض عليهم نائب سيس وحز رؤوسهم في القاهرة ثم علقهم على باب النصر وباب الفتوح ، وقد قويت الإشاعات بأن الصفوي متحرك على البلاد ، وأن قاصده واصل إلي السلطان)[٤٩].

ولقد أدى هذا الضعف العسكري الذي آلت اليه سلطنة المماليك بإغراء القوى الصليبية وخاصة البرتغال بمهاجمة القواعد والموانئ الإسلامية في خليج عدن والبحر الأحمر والمحيط الهندي ، وقطع الطرق على السفن الإسلامية التجارية المحملة بالبضائع ومنع التجار من نقل التجارة عبر الطريق البحري القديم.

فقد استطاع (فاسكوداجاما) المستكشف البرتغالي من الوصول إلي الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وبدأ في الإفساد في البحار الشرقية كما تقدم ، فقد قام أثناء رحلته الثانية عام ١٥٠٢م بتكليف أحد قادته بالإقامة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمهاجمة السفن الإسلامية ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة أثناء إبحارها في المحيط الهندي إلا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين ، ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل أنهم هددوا جدة سنة ١٥٠٥م وتمكن بعض جواسيسهم من التسلل إلي مكة نفسها ، وقد تركز نشاط البرتغاليين في تلك الفترة في تثبيت أقدامهم على سواحل المحيط الهندي وفي مهاجمة السفن والمراكز العربية الإسلامية في مياه الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي بوجه عام[٥٠].

وقد ذكر ابن اياس في حولياته عدة مرات في أحداث سنوات متفاوتة أخبارا عن عبث الفرنج الدائم في البحار الشرقية وإرسال سلاطين المماليك للعديد من الحملات لإنقاذ هذه المناطق وإنقاذ طريق التجارة التقليدي ، ولكنهم فشلوا في ذلك مع ضعف إمكاناتهم الاقتصادية وقوة الأسطول البرتغالي الناشئ.

فيقول ابن اياس في حوادث عام ٩١١هـ/١٥٠٥م : (وفيه حضر مبشر الحاج وأخبر أن الفرنج كثر عبثهم ببحر الهند ، وأن حسين باشا العسكر المتوجه إلي هناك يشرع في بناء أبراج على ساحل جدة وصور ، وقد جهز المراكب للخروج إلي عدن ، لكن تزايد الضرر من الفرنج فيما بعد وترادفت مراكب الفرنج ببحر الحجاز ؛ فقد بلغوا فوق عشرين مركبا وصاروا يعبثون على مراكب تجار الهند ، ويقطعون عليهم الطريق في الأماكن المخيفة ويأخذون ما معهم من البضائع ، حتى عز وجود الشاشات ، والأرز من مصر وغيرها من البلاد)(٥١).

ولقد قامت الدولة العثمانية بالعديد من المرات بإرسال المساعدات الحربية لموازرة المماليك في حربهم ضد البرتغاليين وصدهم عن المناطق الإسلامية ، فيقول ابن اياس في حوادث عام ٩١٦/١٥١٠م : (وفيه حضر يونس العادل وكان السلطان أرسله إلي بلاد ابن عثمان ليشتري له خشبا وحديدا وبارودا ، فلما بلغ ابن عثمان ذلك رد المال الذي كان مع يونس العادلي وقال له أنا أجهز من عندي زردخاناه السلطان)(٥٢).

وهكذا فان الدوافع التي دفعت الدولة العثمانية للولوج إلي منطقة الشرق الأوسط وخاصة مصر والشام والسيطرة على هذه المنطقة لم تكن

بالدوافع الدينية ، فقد كانت مسألة مصيرية بالنسبة للإسلام والمسلمين ، فكانت بحق أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي البرتغالي على البحر الأحمر والأماكن المقدسة الإسلامية ، وعلى الرغم من أن الدولة العثمانية قد أخفقت في طرد الاستعمار البرتغالي تماما من مراكزه في المحيط الهندي ومنطقة الخليج العربي إلا أنها نجحت في منع تغلغله في الحجاز حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيته وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز باحتلال ميناء جدة ثم الزحف على مكة المكرمة واقتحام المسجد الحرام وهدم الكعبة المشرفة ثم موالاة الزحف على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم استئناف الزحف إلى تبوك ومنها إلى بيت المقدس والاستيلاء على المسجد الأقصى(٥٣).

ولقد دفعت كل هذه العوامل كما تقدم السلطان سليم الأول للإسراع بالتوجه نحو الشرق والسيطرة على مصر والشام النواة الحقيقية التي استطاعت من خلالها الدولة العثمانية السيطرة على معظم العالم العربي سواء الأجزاء الشرقية أو بلدان المغرب العربي.

ولقد تلا سقوط مصر في أيدي العثمانيين عام٩٢٣هـ/ ١٥١٧م امتداد سيادتهم إلى الحجاز امتدادا سليما ، فالحجاز لم تكن ترتبط بدولة معينة في مصر ، بل كانت ترتبط بمصر ذاتها بصرف النظر عن الحكومة أو الدولة القائمة فيها(٥٤).

فلقد أرسل شريف مكة مفاتيح الكعبة المشرفة إلى السلطان سليم وبايعه وأعلن تبعيته، ومنذ ذلك الوقت لقب السلطان العثماني بخادم الحرمين الشريفين ، هذا إلى جانب أن السلطان سليم هو أول من تلقب

بأمير المؤمنين من سلاطين بني عثمان ، ويرجع هذا إلـــي أن الخلافــة العباسية قد انتقلت بعد سقوطها فــي بغـداد علــى يـد المغـول عــام ٦٥٦هـــ/١٢٥٨م إلي مصر في عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقداري ولكن لم تكن إلا خلافة اسمية ذات سلطة روحية وأما الســلطة الفعليــة (الزمنية) فكانت في يد سلاطين المماليك ، ولذلك فان الخليفة كان يقيع في حماية سلاطين القاهرة ، فلما سقطت الدولة المملوكية أصبحت السلطتين الزمنية والروحية في يد سلطان العثمانيين فتلقب بخليفة المسلمين وأميــر المؤمنين.

وقد اختلف المؤرخون على كيفية انتقال السلطة الروحية من آخر خلفاء العباسيين المتوكل إلي السلطان سليم ، ولكن أيا ما كان الأمر فــان السلطان سليم الأول لم يكن بحاجة إلي لقب الخلافة الذي أصبح لقبا شرفيا منذ سقوط الخلافة في بغداد ، ولأن السلطان العثماني في ذلــك الوقــت كانت دولته حامية للحرمين الشريفين بالإضافة إلي أنها حامية للإسلام بعد سقوط معظم دول الشرق تحت تبعيتها وتصديها لكل من حاول النيل مــن الإسلام والمسلمين ، وهكذا فان السلطان العثماني بصفته ســلطان أكبــر دولة إسلامية فمن المنطقي أن يكون هو خليفة المسلمين وزعيمهم الأكبر القائم على أمرهم.

وكان دخول سليم الأول لمصر والشام دخول الفــاتحين ولــيس دخول الغزاة المحتلين ، فقد استقبله أهلها بالفرح والسرور والاستبشار ، كما ذكر ابن اياس في كتابه ، وكان أملهم هو إبطال المظالم التي كانــت على أيام الغوري الذي بغى وزادت مظالمه ، فيقول ابن ايــاس : (انــه حدث في أيام دولته من أنواع المظالم ما لم يحدث في سائر الــدول مــن قبله)[٥٥].

ويقول الجبرتي : (ولم يزل حتى تملك السلطان سليم الديار المصرية والبلاد الشامية وعادت مصر إلي النيابة كما كانت في صدر الإسلام ولما خلص له أمر مصر عفا عمن بقى من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصرية بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات والعلوفات وغلال الحرمين ورتب للأيتام والمشايخ والمتقعدين ومصارف القلاع والمرابطين وأبطل المظالم والمكوس والمعلوم ثم رجع الي بلاده وأخذ الخليفة العباسي)(٥٦).

وبعد أن استتب الأمر للسلطان سليم في مصر والحجاز، أصبح البحر الأحمر ذو بعد استراتيجي هام فلابد من السيطرة على كافة مراكزه وغلقه أمام البرتغاليين ومن ثم جعله نقطة انطلاق لوقف التوسع البرتغالي في مياه المحيط الهندى ووقف إعاقتهم للملاحة الإسلامية من والي الهند ، ولذلك كانت الخطوة التالية هي إخضاع اليمن وخاصة عدن التي تشرف على مضيق باب المندب الهام الذي يتحكم في دخول وخروج السفن من والي البحر الأحمر ، ولقد سقطت عدن بالفعل في يد العثمانيون في عهد السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣٨م ومنذ ذلك الوقت فصاعدا حلت عدن ذات الموقع الاستراتيجي الهام محل جدة بالحجاز كخط دفاعي أمامي وقاعدة بحرية متقدمة ضد البرتغاليين(٥٧).

ويذكر أن البرتغاليين أثناء كشوفهم الجغرافية للساحل الإفريقي الشرقي استطاعوا انتزاع المشيخات الإسلامية القائمة على الساحل من سوفالا جنوبا حتى مقديشيو شمالا وهي عاصمة الصومال الحالية(٥٨).

ولكن بعد السيطرة على عدن رأى العثمانيون ضرورة إبعاد البرتغاليين عن سواحل البحر الأحمر الغربية ، وتحرير الجزء الشرقي من الساحل الإفريقي وخاصة القريبة من البحر الأحمر مما يساعد على

حمايته ، هذا بالإضافة إلى أن الاحتلال العثماني لميناء مصوع[٥٩] من شأنه قطع الاتصال بين الحبشة والهند البرتغالية[٦٠] وبالفعل استطاع سنان باشا تخليص المنطقة بالكامل من البرتغاليين عام ١٥٣٨م وأصبحت مصوع وسواكن وما حولهما ولاية عثمانية سميت بولاية الحبش.

ولقد أدى استيلاء البرتغاليين على هرمز إلى إغلاق الخليج العربي وإلى سيطرتهم على مصايد اللؤلؤ في الخليج وعلى تجارة الخيول الفارسية والعربية التي كانت ترسل من هرمز إلى بلاد الهند[٦١] ، هذا بالإضافة إلى تقويض العالم الإسلامي من الناحية الشرقية بشكل كامل.

ولقد تخلت الدولة الصفوية عن مساعدة سكان المناطق التي وصل إليها الغزو البرتغالي من هذه الناحية ، فتركت مدن الخليج العربي تواجه مصيرها بنفسها وزادت على ذلك أن تحالفت الدولة الصفوية مع البرتغاليين ، فنجد البوكيرك القائد البرتغالي يستغل هذا الموقف ويرسل عام ١٥٠٩م برسالة إلى الصفوي جاء فيها :

(إني أقدر لك احترامك للمسيحيين في بلادك ، وأعرض عليك الأسطول والجند والأسلحة لاستخدامها ضد الترك في الهند ، وإذا أردت أن تنقض على بلاد العرب وأن تهاجم مكة فستجدني بجانبك في البحر الأحمر أمام جدة أو في عدن أو في البحرين أو في قطيف أو في البصرة وسيجدني الشاه بجانبه على امتداد الساحل الفارسي وسأنفذ له كل ما يريد)[٦٢].

وهكذا وجد العثمانيون أنفسهم مطوقين من قبل هذا التحالف الذي يمثل خطرا كما رأينا في الرسالة على المناطق العربية السنية بالاضافة الى الأماكن المقدسة الحجازية ، هذا بجانب خطره على التجارة بوجه عام في هذه المنطقة ، ولذلك حاول العثمانيون إيجاد منفذ لهم على الخليج

العربي ليكون قاعدة انطلاق لمجابهة البرتغاليين في هذه المناطق وتطويقها.

واستطاع العثمانيون بالفعل بعد احتلالهم العراق واستردادها من الصفويين احتلال البصرة والسيطرة على منطقة شط العرب ثم القطيف عام ١٥٥٠م ، ثم مدوا نفوذهم إلي الاحساء التي احتلوها عام ١٥٥٥م وجعلت الاحساء ولاية عثمانية وقاعدة أمامية للدفاع ضد البرتغاليين المتمركزين في هرمز ، وكذلك ضد الصفويين.

واشتد الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين في مياه الخليج العربي ففي عام ١٥٥٢م أبحر من السويس أسطول عثماني كبير بقيادة بيري ريس لاحتلال الطرف الشرقي من الجزيرة العربية وقطع خطوط الإمداد المحلي البرتغاليين ، واحتلت الحملة مسقط ثم أبحرت إلي هرمز وضربت الحصار على قلعتها لمدة شهر ، ثم انسحبت لوصول إمدادات برتغالية كبيرة ، وتلا ذلك أن كلف السلطان سليمان عام ١٥٥٣م قائدا بحريا جديدا هو مراد بك بالتوجه إلي العراق للخروج بقطع الأسطول العثماني المحصورة في البصرة ، ونزل مراد بالبصرة وبعد أن أبحر بأسطوله خاض معركة غير حاسمة مع البرتغاليين بالقرب من الساحل الفارسي ، فاضطر للعودة إلي البصرة مرة أخرى(١٢).

ودامت بعد ذلك المناوشات العثمانية البرتغالية في الخليج ولم تسفر هذه المناوشات عن أية معارك حاسمة . والجدير بالذكر أن العثمانيين لم يعملوا على مقاومة التغلغل البرتغالي في الأراضي العربية والمحيط الهندي بالطرق العسكرية وحدها بل حاولوا إقامة تحالفات مع سلاطين الهند المسلمين وإيصال المساعدات البحرية إليهم ليتمكنوا من القضاء على النفوذ البرتغالي في الهند وجزرها الغربية.

فبادر السلطان سليمان بعقد اتفاق مع حاكمي (قاليقوط) و (كامباي) وهما الحاكمان الهنديان اللذان تأثرا من الغزو البرتغالي ، وكان ذلك الاتفاق ينص على العمل المشترك ضد البرتغاليين ، ثم أعقب ذلك الاتفاق إصداره مرسوما إلي سليمان باشا الخادم والي مصر يأمره فيه بالتوجه إلي الهند ومحاربة البرتغاليين وإزالتهم من البحر(٦٤).

وقد أدرك السلطان علاء الدين سلطان الهند قوة وأهمية الأسطول العثماني في مواجهة الأساطيل الأوروبية وأهمية الاستعانة به ضد هذه الأساطيل في البحار الإسلامية ، عندئذ أرسل السلطان سليمان القانوني حملة سليمان باشا التي خرجت من السويس لمواجهة البرتغاليين ومنعهم من التوغل في البحر الأحمر ، ومن ثم التوجه إلي المحيط الهندي لإغاثة سلطان الهند(٦٥).

ولما وصلت تلك الحملة إلي ديو ولم تتمكن من الاستيلاء عليها حاولت مرة أخرى الاستيلاء على القلاع الأمامية ، ولكن وصلت إمدادات للجيش البرتغالي ولولاها لاستسلمت جميع القلاع.

ويرجع سبب تفوق البرتغاليين الدائم في الهند إلي مساعدة الهندوس الذين انحازوا للبرتغاليين لكي يضعفوا من قوة السلاطين الهنود المسلمين ، ففي ذلك الحين وحد العداء للإسلام بين الإمبراطورية الهندوكية والسلطات البرتغالية ، وهو الأمر الذي يفسر بقاء البرتغاليين بجاوة بقوة عسكرية لا تذكر(٦٦).

ومع هذا فقد استطاع العثمانيون بحملاتهم المستمرة على تلك المناطق وسيطرتهم على المناطق الإستراتيجية في شرق أفريقيا والبحر الأحمر وجنوب الجزيرة العربية الحد من عبث البرتغاليين في تلك

المناطق وخاصة منطقة البحر الأحمر حيث دأبوا في السنوات الأخيرة على مهاجمة قواعده الهامة .

هذا بالإضافة إلى محاولة الدولة العثمانية إعادة التجارة إلى سابق عهدها لإنعاش الاقتصاد الذي ضعف في المنطقة العربية بسبب تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح ، وكانت لهم في هذا الشأن مجهودات كبيرة.

ففي عهد السلطان سليمان القانوني خطت الدولة العثمانية خطوات هامة في سياسة الانفتاح تجاريا مع عدد من الدول الأوروبية لتنشيط الحركة التجارية ، إذ عقد السلطان سليمان مع فرنسوا الأول ملك فرنسا معاهدة عام ١٥٢٨م جددت فيها الدولة العثمانية تلك الامتيازات التي سبق وأن منحها سلاطين المماليك للفرنسيين وكانت المعاهدات الجديدة تكفل لتجار فرنسا ورعاياها الأمن والطمأنينة على أموالهم ومتاجرهم في أثناء تواجدهم في ممتلكات الدولة بل إنها تنظم إقامتهم في أحياء خاصة مع عدم المساس بكنائسهم وعدم فرض ضرائب عقارية عليهم[١٧].

وقد استمرت الدولة العثمانية في عقد المعاهدات التجارية بين فرنسا و انجلترا وغيرهما من دول أوروبا التجارية مثل البندقية لتشجيع رعايا تلك الدول على تكثيف نشاطهم التجاري والاقتصادي في أراضي الدولة العثمانية ، حتى تعود الحركة التجارية بقدر الإمكان إلى نشاطها المعهود قبيل تحول طريق التجارة إلى رأس الرجاء الصالح.

ولا شك أن هذه المعاهدات تعد أبلغ رد على الفرية التي يرددها بعض المؤرخين والباحثين المتحاملين على الدولة العثمانية والذين يدعون أنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوروبا مما أدى إلى تخلف العالم العربي.

وهكذا ناقشنا في هذا الفصل بقدر الإمكان الدور الهام الذي لعبته الدولة العثمانية في حماية العالم العربي والإسلامي من الناحية الشرقية ، وتنامي دورها الاستراتيجي شرقي البحر المتوسط والذي حافظ على وحدة العالم العربي وحمايته ، والذي سيؤدي كما سنرى لاحقا إلى حمايته أيضا من الناحية الغربية واتصال جناحيه الشرقي والغربي تحت سلطة قويـــة وموحدة.

هوامش الفصل الأول

١- أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى العصر الذهبي ، ايتراك للنشر والتزيع ، سنة ٢٠٠٥م ، ص٢٢.

٢- وقد حدث ذلك في معركة عين جالوت بقيادة سيف الدين قطز عام ١٢٦٠/٦٥٨م ، وكانت من المعارك الفاصلة في التاريخ فقد تشتت جمع المغول البربري وأسلم الكثير منهم.

٣- عمر عبد العزيز ، تاريخ المشرق العربي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ١٩٩٨م ، ص٣٦.

٤- محمد فؤاد كوبرلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة د. أحمد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، سنة ١٩٦٧م ، ص٤.

٥- هو أرطغرل بن سليمان شاه التركماني قائد احدى القبائل التركية النازحة من سهول آسيا الغربية إلي بلاد آسيا الصغرى وهو والد السلطان عثمان المؤسس الفعلي للدولة العثمانية ، وقد توفي أرطغرل عام ١٢٨٨م.

٦- هو عثمان بن أرطغرل ولد عام ١٢٥٨/٦٥٦م ، وهو أول سلاطين آل عثمان وإليه تنسب الدولة العثمانية ، تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام ٦٨٧ للهجرة بتأييد من الأمير علاء الدين السلجوقي الذي قام بمنحه أي أراضي يقوم بفتحها وسمح له بضرب العملة واتخاذ مدينة (اسكي شهر) في الأناضول قاعدة له ، ولقب نفسه باديشاه آل عثمان ، توفي عام ١٣٢٦/٧٢٤م.

٧- ياسر أحمد حسن ، تركيا : البحث عن المستقبل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٦م ، ص١٥.

٨- أحمد آق كوندوز ، الدولة العثمانية المجهولة ، وقف البحوث العثمانية سنة ٢٠٠٨م ، ص٤٦.

٩- المرجع السابق ، ص٥١.

١٠- المرجع السابق ، ص٥٠ ، ٥١.

١١- المرجع السابق ، ص٥٠ ، ٥١.

١٢- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، الدولة العثمانية منذ نشأتها الخ ، ص٤٨ : ٥٠.

١٣- المرجع السابق ، أحمد آق كوندوز ، الدولة العثمانية المجهولة ، ص٥٣ ، ٥٤.

١٤- روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، الجزء الأول ، ترجمة بشير السباعي ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٩٣م ، ص٢٠٢.

١٥- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها الخ ، ص٤٨ ، ٤٨.

١٦- تيمورلنك : ولد عام ٧٣٦/١٣٣٦م جنوبي سمرقند في أوزباكستان الحالية ، وهو من سلالة جانكيزخان المغولي إلا انه كان مسلما ، حاول تيمورلنك إعادة مجد دولة المغول وبدأ التوسع من سمرقند بعد أن قهر حاكمها وأعلن نفسه حاكما عليها عام ١٣٧٠م فنجح في الاستيلاء على خوارزم عام ١٣٧٩م ثم خراسان عام ١٣٨٠م ، وباكستان وأفغانستان ، ثم انطلق لفتح أذربيجان واستولى على إقليم فارس ثم أصفهان التي بلغ بها عدد القتلى من جراء غزوه إلى ٧٠ ألفا ، وبعد إخضاعه فارس وإيران اتجه إلى العراق فخربها وواصل سيره فخرب ديار بكر وبلاد أرمينية وجورجيا ، ثم اتجه

بعدها إلي الشرق مرة أخرى فاحتل دلهي وخربها ودمرهـا عـن آخرها ، ثم رجع إلي سمرقند التي لم يمكث فيها طويلا فعاد مـرة أخرى لمواصلة غزوه فدمر حلب ودخل دمشـق وأحرقهـا حتـى أصبحت أطلالا ، ثم اتجه إلي طرابلس وبعلبك ودمرهما ، ثم اتجه الي بغداد فدمرها عن آخرها وقتل بها ما يزيد عن مائة ألف إنسان ، ثم استعد لملاقاة الدولة العثمانية حيث هزم السلطان بايزيد الأول (يلدرم) هزيمة ساحقة في موقعة أنقرة عام ١٤٠٢م فوقعـت مـن جراء ذلك أملاك الدولة العثمانية بين يديه وما لبث أن مـات بعـد ذلك بقليل أثناء غزوه للصين عام ١٤٠٥م بعد أن دانت له الـبلاد من دلهي إلي دمشق ، بعد مماته ذهبت إمبراطوريته التـي بناهـا على القتل والتدمير أدراج الرياح ، وقسم ما بقي منها بين أولاده .

١٧- القسطنطينية : كانت عاصمة الإمبراطورية الرومانية خلال الفترة من ٣٣٠م إلي ٣٩٥م ، وعاصمة الدولة البيزنطية إلي عام ١٤٥٣م وعاصمة الدولة العثمانية بعد أن فتحها محمـد الثـاني السـلطان العثماني عام ١٤٥٣م وحتى عام ١٩٢٤م ، أطلق عليها العديد من الأسماء من بينها بيزنطة وإسلام بول أي مدينة الإسلام .

١٨- عبد العزيز الشناوي القرموطي ، العلاقات المصرية العثمانيـة ، الزهراء للإعلام العربـي ، الطبعـة الأولـى ، عـام ١٩٩٥م ، ص٥٩ ، ٦٠.

١٩- ابن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة مطابع الشـعب عام ١٩٦٠م ، ص٢٥.

٢٠- هو السلطان سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح ، ولد عام ١٤٧٠م ، هو أول من تلقب بأمير المؤمنين من خلفاء آل عثمـان

وقد تلقب بياوز أي المهول أو العظيم ، حكم ثمان سنوات حتى وفاته عام ١٥٢٠م ، كان من أعظم سلاطين آل عثمان وأشدهم تأثيرا رغم قصر مدة حكمه ، فتحت في عهده مصر والشام والحجاز وأجزاء كبيرة من أراضي الدولة الصفوية.

٢١- هو السلطان سليمان بن سليم الأول الملقب بالقانوني ، لقب في الغرب بسليمان العظيم ، يعده المؤرخون أعظم سلاطين آل عثمان قاطبة ، ولد عام ١٤٩٥م وحكم مدة ٤٨ عاما منذ ١٥٢٠حتى عام ١٥٦٦م ، زادت مساحة الدولة في عهده أكثر من الضعف حيث فتح شمال إفريقيا ونصف دولة المجر في أوروبا وفتح بلجراد وحاصر فيينا ، كان معروفا بورعه وعدله ، وروي أن كل كتاباته تبدأ بالآية الكريمة (انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم) (انظر : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية).

٢٢- بلجراد : هي مدينة تقع في شرق أوروبا ، وهي عاصمة الصرب وأكبر مدنها ، يعود تأسيسها إلى القرن الثالث قبل الميلاد قبل أن تصبح مستعمرة رومانية ، كانت عاصمة الصرب منذ عام ١٤٠٤م وعاصمة يوغسلافيا بين عامي ١٩٨١م - ٢٠٠٣م ، كانت بلجراد آخر بقعة مسيحية دانت للعثمانيين في البلقان وكان ذلك في عهد السلطان سليمان القانوني .

٢٣- إسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٧م ، ص٢٨ ، ٢٩.

٢٤- المرجع السابق ، ص٢٩.

٢٥- المرجع السابق ، ص٣٠ ، ٣١.

٢٦- المرجع السابق ، ص٣١ ، ٣٢.

٢٧- جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، المكتبة الثقافية رقم ١٢٣ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٥ ديسمبر ١٩٦٤ ، ص١٣.

٢٨- المرجع السابق ، ص١٦.

٢٩- المرجع السابق ، ص١٦ ، ١٧.

٣٠- المرجع السابق ، ص١٣.

٣١- المرجع السابق ، ص١٤ ، ١٥.

٣٢- المرجع السابق ، ص١٥.

٣٣- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها الخ ، ص١٩٨ : ٢٠٠.

٣٤- المرجع السابق ، روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، ص٢٦١.

٣٥- أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة السابعة ، ١٩٨٦م ، ص٨٤٦.

٣٦- السلطان عبد الحميد الثاني : هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين آل عثمان وآخر من امتلك السلطة الفعلية منهم ، ولد عام ١٨٤٢م وتولى الحكم عام ١٨٧٦م ، ابعد عن العرش من قبل جماعة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٩م بتهمة الرجعية ، أقام بعدها تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته عام ١٩١٨م ، له الكثير من المآثر منها وقوفه أمام الأطماع الصهيونية في فلسطين ودعوته للوحدة الإسلامية بين شعوب العالم الإسلامي تحت شعار (يا مسلمي العالم

لتحدوا) وقد لقيت هذه الدعوة رواجا كبيرا لولا قوى الغرب التي قامت بمناهضة تلك الدعوة ومهاجمتها.

٣٧- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ص٤٨٩.

٣٨- اليكس جوارفسكي ، الإسلام والمسيحية ، ترجمة : خلف محمد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢١٥ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، نوفمبر ١٩٩٦م ، ص١٨٧.

٣٩- المرجع السابق ، جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير السخ ، ص١٧.

٤٠- أندريا ريمون ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع عام ١٩٩١م ، ص٣٤ ، ٣٥.

٤١- المرجع السابق ، ص٣٦ ، ٣٧.

٤٢- المرجع السابق ، ص٣٨.

٤٣- الحركة الصفوية : تنسب إلي الشيخ صفي الدين (١٢٥٢-١٣٣٤م) من أردبيل الذي كان من المتصوفة الزاهدين ، ومنذ أواسط القرن الخامس عشر انتقلت الصفوية من التأمل الصوفي إلى العقيدة الشيعية المتاضلة ، وقد حصلوا على مساندة أوزون حسن الحاكم التركماني لشرقي الأناضول وفارس وقد حاول أوزون حسن بعد ذلك كبح جماحهم إلا أن إسماعيل (١٤٨٧-١٥٢٤م) الملقب بالصفوي ابن آخر الزعماء الصفويين استطاع أن يغزو إيران مصطحبا معه سبع قبائل من القزلباش مكنته من القضاء على

الأسر الحاكمة الصغيرة التي قامت على أنقاض دولة الآق قيونلـــو (الخروف الأبيض) والتيموريين والسيطرة على البلاد خلال عقــد واحد ، وعلى حين أن الأسرة الصفوية برزت في الأصل باعتبارها زعيمة لحركة تركمانية صوفية فإن التحول إلي المذهب الشيعي قد اكتمل خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشــر باعتبـــاره جزءا من العملية التي أدت إلي انضواء جماهير إيران تحت زعامة إسماعيل الصفوي – وأصله التركماني – الذي يحظى بـــالاحترام والتقديس. (انظر : أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ص٧٦).

٤٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، فــي أصـــول التـــاريخ العثمـــاني ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، عام ٢٠٠٣ م ، ص٧٨.

٤٥- المرجع السابق ، ص٧٨.

٤٦- هو السلطان بايزيد الثاني بن محمـــد الفـــاتح ، ثـــامن الســـلاطين العثمانيين ، تقلد الحكم بعد وفـــاة أبيـــه عـــام ١٤٨١م ، واصـــل الفتوحات على الجبهة الأوروبية حيث حارب جمهوريـــة البندقيـــة التي انتصر عليها فاستنجدت بملك فرنسا والبابا فقامـــت حـــروب صليبية بين الطرفين ، قامت في عهده الدولة الصفوية ذات المذهب الشيعي التي قامت بمحاولات لنشر المذهب الشيعي داخل أراضـــي الدولة العثمانية فلم يتصد لها وكان ذلك سببا فـــي إجبـــاره علـــى التنازل عن العرش من قبل الانكشارية لابنه السلطان ســـليم الأول عام ١٥١٢م وكانت هي نفس سنة وفاته.

٤٧- المرجع السابق ، ص٨٠ ، ٨١.

٤٨- المرجع السابق ؛ ابن إياس ، بدائع الزهور ، ص٨٠٤.

٤٩- المرجع السابق ، ص٨٤٨.

٥٠-فاروق عثمان أباظة ، أثر تحول التجارة العالمية إلي رأس الرجاء الصالح علي مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ، ص٤٢ : ٤٤.

٥١- المرجع السابق ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص٧٥٣.

٥٢- المرجع السابق ، ص٨٠٧.

٥٣- عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الثاني ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الثانية ، عام ١٩٨٦ م ، ص٨٦٣.

٥٤- المرجع السابق ، اسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، ص٤٢.

٥٥-يقول ابن اياس : أن السلطان الغوري ولى مصر في مستهل شوال سنة ست وتسعمائة ، وتوفى في رجب سنة اثنتين وعشرين وتسعمائة وكان الناس معه في هذه المدة في غاية الضنك وقد قلت في المعنى :

أعجبوا للأشرف الغوري الذي مذ تناهى ظلمه في القاهرة

زال عنه ملكه في ساعة خسر الدنيا إذا والآخرة

٥٦- عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الأول ، المطبعة العامرة الشريفة بمصر ، عام ١٣٢٢ للهجرة ، ص٢١.

٥٧- المرجع السابق ، إسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، ص٥٠.

٥٨- إبراهيم علي طرخان ، البرتغاليون في غرب أفريقيا ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد الخامس والعشرون – الجـزء الأول ، مايو ١٩٦٣م ، ص٢٧.

٥٩-مصوع : هي إحدى مدن دولة أرتريا الحالية ، تطل على البحـر الأحمر ، تعتبر من أهم موانئ شرق أفريقيا وخاصة في العصـور الوسطى ، احتل البرتغاليون مصوع في مستهل القـرن السـادس عشر واضطهدوا سكانها واعتدوا على مقدسـاتهم اذ حـول الأب الفاريز مسجد مصوع إلي كنيسة لمصلحة البرتغاليين ، وقد رفض أمير مصوع التعامل مع الغزاة البرتغاليين ونظرا لما تعرض لـه السكان المحليون من تعسف الغزاة طلـب أميـر مصـوع مـن العثمانيين التدخل لتخليص المنطقة مـن الاحـتلال البرتغـالي ، فاستولى سنان باشا عليها عام ١٥٣٨ م وطرد البرتغـاليين مـن المنطقة ومنح أمير مصوع الصلاحية على مناطق واسـعة كانـت تمتد من البحر الأحمر إلي تجاري عرضا ومن باب المندب إلـى سواكن طولا.

٦٠- المرجع السابق ، إسماعيل أحمد ياغي ، العـالم العربـي الـخ ، ص٥١.

٦١- المرجع السابق ، عثمان أباظة ، أثر تحول التجارة الخ ، ص٤٥.

٦٢- علي الصلابي الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السـقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، الطبعة الثانية ، عـام ٢٠٠٤م ص ١٩٧ ، نقلا عن صلاح العقاد ، التيارات السياسـية فـي الخلـيج العربي ، ص١٧.

٦٣- المرجع السابق ، إسماعيل أحمد ياغي ، العـالم العربـي الـخ ، ص٦٠.

٦٤- نص الرسالة : (عليك يا بك البكوات في بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه ، بتجهيز حاجتـك ، وأعـداد العـدة بالسويس للجهاد في سبيل الله ، حتى اذا تهيأ لك إعداد الأسـطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جـيش كـاف فعليـك أن تخرج الي الهند وتستولي وتحافظ على تلك الأجـزاء ، فانـك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبل المؤدية الي مكة المكرمة تجنبـت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم مـن البحـر) ، (انظـر : المرجع السابق ، على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص١٩٦).

٦٥- عايض بن حزام الروقي ، جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلي الحرمين الشريفين ، مقال بالمجلـة التاريخية المصرية ، الجمعية المصـرية للدراسـات التاريخيـة ، المجلد رقم ٤٢ عام ٢٠٠٤ م ، ص٥٥٩ ، ٥٦٠.

٦٦- عبد العظيم رمضان ، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحـديث ، الجزء الأول ، الهيئة المصرية العامة للكتـاب ، عـام ١٩٩٧ م ، ص٢١٨.

٦٧- المرجع السابق ، فاروق أباظـة ، أثـر تحـول التجـارة الـخ ، ص٧٠ : ٨٠.

الفصــل الثانــي

الأوضاع السياسية للمغرب العربي

قبيل السيطرة العثماني في القرن ١٦

- أحوال بلدان المغرب العربي في نهاية العصور الوسطى.
- دوافع الاستعمار الأيبيري للمغرب العربي.
- بداية استعمار البرتغال للمغرب العربي.
- بداية الاستعمار الاسباني للمغرب العربي.

الفصل الثاني

الأوضاع السياسية للمغرب العربي قبيل السيطرة العثمانية في القرن ١٦

أحوال بلدان المغرب العربي في نهاية العصور الوسطى :

لقد أوضحنا في الفصل السابق كيف كان المشرق العربي في أوضاع سياسية واقتصادية سيئة قد أدت به في النهاية ليكون مطمع من قوى خارجية شتى أرادت السيطرة عليه ، وكما استطاع البرتغاليون تهديد العالم العربي والإسلامي من الناحية الشرقية ، فقد استطاعوا بالإضافة إلي الأسبان تهديده من الناحية الغربية ، بل إن التهديد من هذه الناحية كان أشد وطأة وأكثر عنفا ووحشية وذلك بالطبع لارتباط هذا الجزء من العالم الإسلامي ارتباطا وثيقا بالعالم المسيحي حيث شبه الجزيرة الايبيرية التي سيطر عليها العرب المسلمون زهاء ثمانية قرون ، فكان العامل التاريخي بجانب العامل الجغرافي يشكلان قدرا كبيرا من الأهمية في مستقبل هذه المنطقة وتعرضها للغزوات المستمرة من قبل الصليبيين ، وخاصة بعد تفككها السياسي الكامل وانهيارها الاقتصادي قبيل السيطرة العثمانية عليها.

لقد كان المغرب العربي والأندلس تحت حكم دولة واحدة هي دولة الموحدين[١] التي تعتبر من أعظم الدول في تاريخ الإسلام ، لقد بلغت بتاريخ المغرب ذروته خلال العصور الوسطى ، وتمكنت من تحقيق وحدته وحكمه بالفعل لفترة طويلة من طرابلس إلي المحيط ومن ساحل البحر المتوسط إلي مشارف أفريقيا المدارية هذا بالإضافة إلي ملكهم في الأندلس[٢].

ولكن ما لبث تلك الدولة أن بدأت في الانهيار بعد هزيمتها الثقيلة على يد الصليبيين في الأندلس في موقعة العقاب الشهيرة عام ١٢١٢م ،

والتي تعتبر بداية نهاية المسلمين في الأندلس وبداية التشتت والتشرذم للمسلمين في المغرب العربي والتناحر فيما بينهم.

فلقد أدت الهزيمة في الأندلس إلي تشجيع ملوك النصارى الذين مضوا في الاستيلاء على الحصون الإسلامية دون مقاومة تقريبا ، خاصة عندما قام النزاع بين الأمراء المسلمين على السلطة ، فأخذت كبار العواصم في السقوط وانهار خط الوادي الكبير. وفيما بين عامي ٦٣٣هـ-٦٤١هـ/١٢٣٦م-١٢٤٣م سقطت قرطبة واشبيلية وجيان ومرسية وبلنسية وجزر البليار ، ويكفي أن نذكر أن قرطبة عاصمة الأندلس الزاهرة سقطت عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م في يد فرناندو الثالث ملك قشتالة الملقب بالقديس دون أن يدافع عنها أحد.

وبعد سقوط هذه القواعد وضياع خط الوادي الكبير ، تجمع بقايا المسلمين في الأندلس تحت لواء محمد بن نصر بن الأحمر ، الذي اعتصم في جبال غرناطة واتخذها مقرا لمملكة صغيرة بدأ تاريخها سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٢م واستطاعت الحفاظ على الركن الجنوبي من الأندلس ، وهو ثمن شبه الجزيرة تقريبا حتى سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م عندما سقطت غرناطة في يد (فرناندو وايزابيلا)(٣) وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس.

أما في المغرب العربي فقد ضعفت قوة الموحدين وسيطرتهم على الشمال الأفريقي ، فزادت بناء على ذلك الفتن والاضطرابات والانقسامات الداخلية وخاصة بين أمراء القبائل البربرية في الشمال الأفريقي ، وأدى هذا في النهاية إلي انهيار الدولة الموحدية وانقسام السلطة في شمال أفريقيا إلي ثلاثة أقسام رئيسة عملت على السيطرة على أقاليم المغرب الكبير وحاولت كل منها أن تسيطر على المنطقة المجاورة لها ، فكانت سلطنة بني مرين في المغرب الأقصى وبني حفص في إقليم تونس ولقد

سمح هذا الانقسام على نشأة أمارة ثالثة في المغرب الأوسط هي أمـــارة بني عبد الواد أو (بنى زيان) الذين اتخذوا من تلمسان مقرا لهم[٥].

ولقد كانت أفريقيا منذ مطلع القرن الرابع عشـــر تـــزداد ضـــعفا وفرقة خاصة بعد ضعف بنى مرين وانحسارهم في المغـــرب الأقصـــى واحتدام الفتن والمشاكل الداخلية فيها والتي مزقتها وانهكت قواها وجعلتها فريسة سهلة لكل طامع.

وبدأت المطامع الأوروبية تتشكل وتتزايد رغبة في السيطرة على الشمال الأفريقي وكانت من أولى الاعتداءات الأوروبية التي وقعت على بلدان الشمال الأفريقي ، هجوم جمهورية جنوة على طرابلس الغرب التي كانت علاقتها بالسلطة المركزية في تونس منذ بداية عهد الفوضى والفتن في مد وجزر ، يقر ولاتها بتبعيتهم للسلطان الحفصي تارة وينكرونها تارة أخرى ، وقد حدث هذا الهجوم على طرابلس عام ١٣٥٤م طمعـــا مـــن الجنويين في السيطرة على تجارة أفريقيا والتى كان يستأثر بجزء كبيـــر منها هذا الميناء الهام[٦].

وبدخولهم المدينة أعملوا السيف في أهلها فقتلوا وسلبوا الكثيـــر منهم ، وتوالت الحملات بعد ذلك على أفريقيا نتيجة لضعفها السياسي من شتى القوى الأوروبية وخاصة اسبانيا والبرتغال اللتان ستعملان في القرن الخامس عشر ومستهل السادس عشر على غزو أفريقيا واحتلال ثغورها الشمالية والغربية لأسباب دينية وسياسية واقتصادية .

دوافع الاستعمار الأيبيري للمغرب العربي :

لا بد لنا أن نذكر بعض تلك الأسباب التي دفعت كل من اســـبانيا والبرتغال للتوجه العسكري على هذا النحو تجاه الشمال الإفريقي ، وهي الأسباب التي ستعمل على تشكيل تاريخ هذه المنطقة لعدة قرون ، وهـــي

أيضا التي ستدفع بالعثمانيين إلي التدخل في هذه المنطقة وبقائهم فيها حتى مطلع القرن العشرين.

كانت دوافع الاستعمار الايبيري للمغرب العربي متعددة ، بين دوافع دينية وسياسية واقتصادية كما تقدم ، فقد كانت حرب الاسترداد المسيحي في شبه الجزيرة الأيبيرية تجري على أشدها من قبل الممالك المسيحية ضد البقية الباقية من الوجود الإسلامي في الأندلس ، الذي اضمحل إلي أقصى مداه خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ولقد كانت تلك الممالك المسيحية منفصلة عن بعضها فكانت سببا من أسباب ضعفها وتناحرها فيما بينها. ولكن القوة قد بدأت تسري في عروق تلك الممالك عندما نحت خلافاتها جانبا بتوحدها أمام عدوها الوحيد ألا وهو الوجود الإسلامي ، فقد استطاعت البرتغال تحقيق حريتها في القرن الثالث عشر قبل مملكتي قشتالة وأراجون (اسبانيا لاحقا) اللتان ظلتا تطارد العرب المسلمين حتى عام ١٤٩٢م عام سقوط غرناطة .

إن التطورات السياسية بالإضافة إلى التطورات الاجتماعية والاقتصادية والدينية التي استجدت في الغرب الأوروبي في القرن الرابع عشر ، والتي تمثلت في ازدياد شعور الولاء لدى الشعوب الأوروبية للوطن الكبير ، ومساندة تلك الشعوب لملوكها على حساب أمراء الإقطاع نظرا لاتفاق مصلحتها مع مصلحة هؤلاء الملوك ، وإحساس تلك الشعوب بأن الملكيات القوية هي التي في استطاعتها توفير الأمن الداخلي وحماية المواطنين من المظالم والابتزاز الذي كان يتعرض له هؤلاء من الأمراء الإقطاعيين ، والدفاع عن الوطن ضد العدوان الخارجي ، كل هذا سيؤدي إلي دخول الحركة الصليبية الغربية في طور جديد[٧] ، لم يقتصر على الدور الديني كعامل أساسي يستتر وراءه الصليبيون لتحقيق أهدافهم

الاقتصادية ، وإنما كان في مجمله دور من أدوار الإحلال إذا صح التعبير كان الغرب المتمثل حينئذ في إسبانيا والبرتغال يتطلع إلي الإحلال مكان العالم الإسلامي وإنهاء دوره نهائيا ، إحلال دينه مكان الدين الإسلامي وكذا تجارته ، بل وإحلال الشعب اللاتيني نفسه مكان الشعوب الإسلامية في الشرق والغرب.

فمن المعروف أن المسلمين في الشرق وخاصة دولة المماليك الجراكسة في مصر والشام كانت تلعب دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب وأدى ذلك إلي ثرائها ثراء شديد كما تقدم ، مما زاد من الأحقاد الصليبية على المسلمين ورغبة الدول المسيحية من انتزاع هذا الدور لصالحها فيتم لهم ضرب المسلمين اقتصاديا ، وفي نفس الوقت العمل على زيادة القوة الاقتصادية لبلادهم ومن ثم القوة العسكرية والحربية.

لهذا ازدادت رغبة البرتغاليين ومن بعدهم الأسبان في كشف طريق بحرى جديد يربطهم مباشرة بالهند وبلاد الشرق الأقصى ليتم لهم السيطرة التامة على التجارة العالمية بين الشرق والغرب. فقد كانت التجارة العالمية في العصور الوسطى تسلك عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الأصلية في بلاد المشرق والتي يطل معظمها على المحيط الهندي حتى تصل إلي الأسواق الأوروبية ، وكان الحجم الأكبر من هذه التجارة يمر عبر موانئ مصر والشام ، وكانت تأتي سفن البنادقة والجنويين وغيرهم فتنقل سلع التجارة إلي أوروبا ، ولهذا نرى أنه منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي بدأ ملوك أرغونة يحرصون على إقامة علاقات قوية مع سلاطين المماليك في مصر والشام من أجل رعاية شئون كاثوليكي الشرق ، وفتح أسواق جديدة لارغونة في مصر. وقد أثبتت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية في علاقات

الأوروبيين بالمماليك ابتداء من القرن الرابعه عشر الميلادي بحيث كـان لكل من البندقية وجنوة وأرغونة تجارة متنامية مع مصر.

ومن هنا يتضح أن المصالح الدينية التي كانت تحظـى بنصـيب وافر في العصر الوسيط بدأت تتراجع أمام المصالح الاقتصـادية التـي ستشكل فيما بعد الركيزة الكبرى في التعامل بين الدول وخاصـة الـدول الأوروبية التي ستتجه بكل طاقاتها إلي الصـناعة والتجـارة ، لتشـكل الركيزة التي انطلقت بهذه الدول فيما بعد نحو ظاهرة الاستعمار بشكلها الحديث والمعاصر.

ولم يكن العامل الاقتصادي بالإضافة العامل الديني هما المحركان الوحيدان للاستعمار الايبيرى لبلدان المغرب الاسلامي ، فكان هناك أيضا العامل السياسي الذي دفع كل مـن اسـبانيا والبرتغـال إلـي ملاحقـة الموريسكيين في الشمال الأفريقي وبلاد المغرب عامة والقضـاء علـيهم وضمان عدم معاودة مهاجمة السواحل الايبيرية أو القيام بأية مـؤامرات ضد الوجود المسيحي داخل شبه الجزيرة ، هذا إلي جانب رغبـتهم فـي الانتقام من بلدان الشمال الافريقي التي كانت تعد منذ أوائل القرن السادس عشر مراكز الغارات البحرية ضد السفن والسواحل الأوروبية.

وسيتبين لنا بعد استعراض دور البرتغال في حركـة الكشـوف الجغرافية ، أن هذه الحركة أساسا كانت تهدف إلي الاستيلاء على تجارة العالم الإسلامي لإضعافه اقتصاديا مما سيؤدي إلي إضعافه عسكريا حتى يسهل السيطرة عليه ، هذا إلي جانب العمل على خلق تكـتلات صـليبية تقف أمام مصلحة المسلمين ومحاربتهم في كل مكان وفيما يلي نستعرض دور البرتغال في مستهل العصر الحـديث فـي تنفيـذ ذلـك المخطـط واستعمارها لأجزاء كبيرة من المغرب العربي.

بداية استعمار البرتغال للمغرب العربي :

لقد بدأت البرتغال قبل اسبانيا بالفعل في تنفيذ ذلك المخطط منذ بدايات القرن الخامس عشر ، مع ازدياد قوتها الاقتصادية إلى جانب قوتها البحرية التي ستصبح سمة الدول العظمى في ذلك العصر.

كان يحرك البرتغال في بداية الأمر التعصب الصليبي الذي تنامى ووصل الى ذروته مع قتال المسلمين في الأندلس ، وقد زاد ذلك العداء الفتوحات المتواصلة في شرق القارة الأوروبية على يد القوة الجديدة في العالم الإسلامي وهم الأتراك العثمانيون ، هذا إلى جانب القوة الاقتصادية الكبيرة التي تمتع بها المسلمون نتيجة للعبهم دور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب.

هكذا كان هدف البرتغال الرئيسي هو ضرب المسلمين في كل مكان وبكل وسيلة ممكنة ، والدليل على هذه النزعة الصليبية التي توجه تحركاتهم هو قيام الأمير هنري الملاح بن يوحنا الأول ملك البرتغال بإضفاء شرعية الكنيسة على جميع فتوحاته من البابا نيقولا الخامس حيث قال : (إن سرورنا العظيم إذ نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال إذ يرسم خطى والده العظيم الملك يوحنا ، وإذ تلهمه الغيرة التي تملك الأنفس كجندي باسل من جنود المسيح ، قد رفع اسم الله إلى أقاصي البلاد وأبعدها عن مجال علمنا ، كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب الكفرة)[٨].

ولقد قال القائد البرتغالي (البوكرك) في خطابه الذي ألقاه على جنده بعد وصوله إلي ملقا ما نصه : (إن أبعاد العرب عن تجارة الأفاوية هي الوسيلة التي يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام) وفي نفس الخطبة قال : الخدمة الجليلة التي سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه

البلاد وبانطفائها شعلة شريعة محمد بحيث لا يندفع لها هنا بعد ذلك لهيب ، وذلك لأني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثرا بعد عين ولامتنعت عن البندقيـة كـل تجـارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلي البرتغال لشرائها من هناك)[٩].

هكذا فإن الدافع الديني كان المحرك لحملات الكشوف الجغرافيـة إلي جانب الحملات الاستعمارية التي أرادت بها البرتغال إضعاف العـالم الإسلامي وسلب تجارته ، وإضعافه اقتصاديا ، ومن ثم إضعافه عسكريا ليسهل السيطرة عليه كما سبق وأن ذكرنا. هـذا بـالطبع دون أن نغفـل العامل الاقتصادي الذي كان أحد العوامل الرئيسة التي دفعت بالبرتغـال لإرسال حملاتها الاستكشافية ، ولقد أوضحنا في الفصل السـابق كيـف استطاعت البرتغال السيطرة على معظم تجارة الشرق عن طريق تحويلها إلي رأس الرجاء الصالح بدلا من المرور في الطرق القديمة التقليدية.

ولقد جاءت الحملات الاستكشافية الناجحة ذات الآثار بعيدة المدى بفضل شخصية تاريخية ذكرناها آنفا ، وهي شخصية الأمير هنري الملقب بالملاح (Henry the navigator) الذي توفي عام ١٤٦١م ، ولقد تمتع الأمير هنري بسعة المعرفة والاطلاع على معارف عصره الجغرافيـة ، كما ألم بفنون الملاحة وأصولها عن طريق دراسة الكتب التي غنمها من المكتبات العربية في البرتغال وقشتالة ، وجمع حوله طائفة من البحـارة المهرة المدربين . ولقد أنشأ هنرى الملاح معهدا بحريا في مدينة سـاجر بالبرتغال عام ١٤١٩م ، كما أنشأ بها دار صناعة ، ووضع مشروعا عاما لحركة الكشف الجغرافي ، أوقف حياته وجهده على تحقيقـه . أراد مـن وراء هذا المشروع الوصول إلي هدفين أولهما : تعقب المسـلمين فـي الشمال الأفريقي ، ونقل الحروب الصليبية إلي بلادهم. والهدف الثـاني :

الوصول إلي ذهب السودان عن طريق البحر الأحمر وتحويل التجارة عن طريق القوافل إلي الطريق البحري والي موانئ المحيط الأطلسي بدلا من موانئ البحر المتوسط(١٠).

ولقد بدأ الأمير هنري في تحقيق مخططه بالاستيلاء على ميناء سبتة عام ٨١٨هـ/١٤١٥م ، والتي لم تعد إلي حظيرة الوطن الأم حتى الآن ولم تستطع الدولة المرينية بالمغرب أن تواجه هذا الخطر الداهم فقد كانت في طور الاحتضار(١١).

ولقد قال في ذلك صاحب الاستقصا : (كان جيش البرتغال وهو البردقيز في هذه السنين قد كثر بعد القلة وأعتز بعد الذلة وظهر بعد الخمول وانتعش بعد الذبول فانتشر في الأقطار وسما إلي تملك الأمصار فانتهى إلي أطراف السودان وأطراف الصين على ما قيل ، ولاح على سواحل المغرب الأقصى فاستولى في سنة ثمان عشرة وثمانمائة على مدينة سبتة أعادها الله بعد محاصرته لها حصارا طويلا)(١٢).

ولم تتوقف عمليات الغزو لثغور المغرب العربي ، بل ازدادت في أعقاب فتح العثمانيين للقسطنطينية عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ، حيث دعا البابا إلي حرب صليبية جديدة ضد القوى الإسلامية التي تهدد العالم المسيحي ، وكان من الذين استجابوا لهذا النداء ألفونس الخامس ملك البرتغال ، وكان هذا الملك البرتغالي قد أخذ يعد العدة منذ وصوله إلي عرش البرتغال عام ١٤٣٨م لمتابعة عمليات الغزو لثغور المغرب ، وكان مما استقر عليه هذا الملك ومستشاريه أن توجه الجهود أولا للاستيلاء على ميناء (القصر الصغير) الواقع بين سبتة وطنجة توطئة للاستيلاء على طنجة ، ولقد نجحت فعلا حملته عام ١٤٥٨م في مهاجمة القصر الصغير والاستيلاء عليه(١٣).

بيد أن الاستيلاء على طنجة ظل الحلم الذي يتطلع إليه التاج البرتغالي ، ولقد بذلت البرتغال محاولات ولم تلبث أن استولت على العرائش ، ثم استطاعت الاستيلاء على طنجة في أغسطس عام ١٤٧١م ، وقد سقط هذا الميناء الذي استعصى من قبل عليهم في أيديهم دون مقاومة تذكر ، فقد كانت الخلافات الداخلية تفتت الجهود وتصرفها عن التفرغ للعدوان الخارجي ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح ملك البرتغال يلقب بملك البرتغال والأقاليم البرتغالية فيما وراء البحار[١٤].

ولقد استولى البرتغاليون بعد ذلك على معظم ثغور المغرب الأقصى المطلة على المحيط الأطلسي كما قال صاحب الاستقصا : (فاستولوا في سنة ثمان عشرة وثمنمائة على مدينة سبتة بعد محاصرتها ست سنين ، ثم في سنة اثنتين وستين وثمنمائة استولوا على قصر المجاز ثم استولوا في سنة تسع وستين وثمنمائة على طنجة ، ثم في حدود سنة ست وسبعين وثمنمائة ملكوا أصيلا ، وفي هذا التاريخ نفسه أو قبله بيسير استولوا على مدينة آنفا وبعض سواحل السوس ، ثم في حدود سنة سبع وتسعمائة نزلوا بأرض الجديدة فيما بين أزمور وتيط وبنوا بها حصن البريجة ، ثم في سنة عشر وتسعمائة استولوا على العرائش ، ثم بعد ذلك بيسير ملكوا حصن أكادير وما اتصل به من سواحل السوس الاقصى ، ثم ملكوا في حدود اثنتي عشرة وتسعمائة رباط آسفي ثم عطفوا على ثغر أزمور ثم المعمورة وهي المهدية ملكوها أيضا في حدود سنة عشرين وتسعمائة ، وبالجملة فلم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين إلا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفوجئ المسلمون من هذا البرتقال بالأمر العظيم)[١٥].

بداية الاستعمار الأسباني للمغرب العربي :

أما عن اسبانيا فقد كانت قبل منتصف القرن الخامس عشر عبارة عن ممالك منفصلة، تارة تتحد لدرء الخطر الإسلامي في شبه الجزيرة ، وتارة أخرى تختلف وتتناحر حتى تم توحيد المملكتين الأكبر في شبه الجزيرة وهما قشتالة وأرلجون عام ١٤٦٩م بزواج الملكين فرناندو وايزابيلا ، وأعقب ذلك توسع اسبانيا في اليابس الأيبيري واستكمالها حركة الاسترداد المسيحي ، فكان هذا التطور في مساحة وقوة اسبانيا حافزا للعرش البرتغالي للاتساع فيما وراء البحار ، وهكذا بدأ التنافس بين الدولتين في مجال الكشوف الجغرافية وفي المجال الاستعماري فيما وراء البحار. لكن قد تم الاتفاق بينهما فيما بعد على تنظيم القوى وتوحيدها للقضاء على الإسلام نهائيا في الأندلس وشمال أفريقيا ، وأيضا القضاء على قوة المسلمين الاقتصادية عن طريق الكشوف الجغرافية وتغيير وجه الخريطة العالمية من الناحية التجارية.

وفي عام ١٤٩٤م عقدت الدولتان اتفاقيتهما الشهيرة (تورندسلاس) لتقسيم أقاليم ما وراء البحار غير المكتشفة بينهما ، وهو التقسيم الذي جعل المستعمرات الشرقية المكتشفة من نصيب البرتغال ، والمستعمرات الغربية المكتشفة من نصيب اسبانيا . هذا بينما في بلدان الشمال الافريقي (طبقا للاتفاقية المكملة عام ١٥٠٩م) اتخذ التوسع البرتغالي والأسباني وجهة جعلت المستعمرات الاسبانية تقع في الشرق بالجزائر وتونس وطرابلس والمستعمرات البرتغالية تقع في الغرب بالمغرب[١٦].

وهكذا بعد التنافس الذي كان على أشده خلال القرن الخامس عشر بين اسبانيا والبرتغال والذي وقف في سبيل توسعهما خاصة في الشمال الأفريقي ، جاءت المعاهدة المذكورة لتضع حدا لهذا التنافس وتحويله إلى تحالف من شأنه أن يؤدي إلى نتائج أفضل أمام الوجود الإسلامي في الشمال الأفريقي ، وخاصة بعد التدخل العثماني واسع النطاق في القرن السادس عشر ومساعدتهم المباشرة لرؤساء البحر والمجاهدين في المغرب الأوسط . ولقد رأينا كيف أن البرتغال على خلفية هذا الاتفاق استطاعت السيطرة على معظم موانئ المغرب الأقصى المطلة على المحيط وبعض الموانئ المطلة على البحر المتوسط مثل سبتة وطنجة.

وعلى أثر هذا بدأت اسبانيا العمل على الاتجاه نحو الشمال الأفريقي في المناطق الواقعة شرقي حجر باديس وكان الأسبان قد وضعوا أيديهم على جزر الكناريا الواقعة قبالة الساحل المغربي في وقت مبكر عام ١٤٧٦م ، وأدت هذه الجزر خدمة جليلة للأسبان ، فاستخدموها كمحطات بحرية لسفنهم وهي تعبر الأطلنطي خلال الخمسين سنة الأولى من اكتشاف واستعمار الأمريكتين.

ولقد ازدادت الرغبة في استعمار الشمال الأفريقي من قبل الأسبان بعد قضائهم على النفوذ الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية وبداية رحلتهم في تنصير المسلمين في القواعد الإسلامية التي سقطت في أيديهم ومحاولتهم القضاء على الموريسكيين[١٧] فقد كان الموريسكيون دائمي الاستغاثة بإخوانهم في المغرب عندما حل بهم طور التعذيب على أيد الأسبان بعد أن أمدوهم على دينهم وأعراضهم وأموالهم ، وكان الفارين منهم يذهبون إلى المغرب ليندروا بقية حياتهم للجهاد ضد الأسبان والانتقام منهم.

وهكذا أصبح المغرب العربي وخاصة الجزائر حصنا منيعا يلتجئ إليه المهاجرون الأندلسيون خاصة بعد أن أبلى الجزائريـــون والمغاربـــة خير البلاء في محاولاتهم المتعددة لإنقاذ مسلمي الأنـــدلس عـــن طريـــق تهريبهم إلى جانب مهاجمة السواحل الشرقية لاسبانيا بصفة مستمرة(١٨).

إلى جانب تلك الأسباب فلقد عمل الأسبان بوصية ملكتهم ايزابيلا لابنتهـــا (جوانا) وزوجها (فيليب) بأن يواصلا الزحف حتى يـــدين لهـــم الشـــمال الأفريقي كاملا ولتنتشر المسيحية بين سكانه.

ومع بداية القرن السادس عشر استقر الأسبان علـــى مهاجمـــة الجزائر ، وكانت بداية هذه الهجمات على ميناء المرسى الكبيـــر غربـــي وهران ، وقد أتم احتلال هذا الميناء من قبل الأسبان وأخـــذوا يعملـــون لتثبيت أقدامهم فيه ليكون نقطة انطلاق لاحتلال المراكز الأخـــرى فـــي الشمال الأفريقي والتي كانت أنظارهم تتجه إليها.

ولعل اختيارهم لهذا الميناء كبداية لعملياتهم الاســـتعمارية علـــى للثغور المغربية في الشمال الأفريقي يرجع إلى موقعه الهام وصـــلاحيته لرسو السفن ، بالإضافة إلى أنه كان مأوى للتجار المسلمين الذين يغيرون على السفن والسواحل الاسبانية . وفي عام ١٥٠٨م أرسل فرناندو حملـــة نجحت في الاستيلاء على حجر باديس لموقعها الاستراتيجي على سواحل المغرب ، وتابع الأسبان نشاطهم في هذه الهجمات فأرسلوا حملة ضخمة عام ١٥٠٩م لمهاجمة وهران ذاتها ، واستطاعوا بالفعل السيطرة عليها ، وباشروا قتل وذبح الأهالي حتى وصل عدد القتلى إلى أكثر مـــن ثمانيـــة آلاف قتيل من الأبرياء ، وأصبحت وهران مركزا للنشاط الأسباني فـــي الشمال الأفريقي ، بينما كانت مليلة مركزا للملاحظة والمراقبة فحســـب . ولم يكتف الأسبان بالاستيلاء على وهران ، ففي عـــام ١٥١١م تحـــرك

أسطول نحو بجاية فهاجموا المدينة ودخلوها عنوة ، وأخذوا في تخريب المدينة والاستيلاء على النفائس. وواصل الأسبان غزوهم في الجزائر فاستولوا على شرشال وبونة وعنابة وغيرها من المدن الساحلية دون أن تحرك سلاطين بني زيان ساكنا لوقف هذا الخطر مما يدل على مقدار ما وصلوا إليه من ضعف[١٩].

واضطر الجزائريون الخضوع مؤقتا للقوة ، فكونوا وفدا برئاسة الشيخ سالم التومي لعقد هدنة وصلح مع المفوض العسكري الأسباني بالجزائر ، وقد اضطرت عدة موانئ أخرى على سواحل المغرب الأوسط مثل دلس وتنس ومستغانم لأن تعترف بسلطان الأسبان ، فأصبحوا بذلك يبسطون نفوذهم على الاموانئ الهامة في كل المغرب الأوسط ، كما أنهم استولوا على طرابلس عام ١٥١٠م واتخذوها قاعدة لعملياتهم الحربية في البحر المتوسط ، وظلوا يحكمونها قرابة عشرين عاما حتى تنازلوا عنها لفرسان القديس يوحنا فحكموها حتى انتزعها منهم العثمانيون عام ١٥٥١م[٢٠].

والجدير بالذكر أن شارل الاول (شارلكان)[٢١] ملك اسبانيا بويع عام ١٥١٩م إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة ، وحاز على مباركة البابا بالإضافة إلي حكم اسبانيا والأراضي المنخفضة ، وتلقب بشارل الخامس. وهكذا ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحرب على المسلمين في الشمال الأفريقي بل في سواحل البحر المتوسط وجزره حربا صليبية بحق تهدف الي استئصال شأفة المسلمين منها وضم تلك المناطق لأراضي الإمبراطورية الرومانية ، إلي جانب تنصير أهلها من المسلمين كما فعلوا بالبقية الباقية من مسلمي الأندلس.

وهكذا بدأ المسلمون المجاهدون في الشمال الأفريقي يشعرون بذلك الخطر الذي يلتهم أراضيهم ، وذلك التحالف الصليبي القائم من قبل الدول الأوروبية الذي يحظى بمباركة البابا للاستيلاء على أوطانهم ، ومنذ ذلك الحين بدأ الجهاد في هذه المنطقة يتخذ طابعا آخر فريدا من نوعه ولا ينتمي لأية كيانات سياسية قائمة على أرض المغرب العربي والتي تواطأ معظمها مع المحتل الأجنبي.

ولقد واكب هذا الدور الجهادي روح العصر باستخدامه الجهاد البحري الذي من شأنه أن يواجه المحتل بنفس أساليبه وطرقه ، فكان على المجاهدين الجدد مواجهة تلك القوة البحرية الفتية وهذه الأساطيل القوية بما يتناسب وإمكاناتها وأساليبها ، وهكذا كان على الأتراك العثمانيون أقوى الدول الإسلامية القائمة آنذاك التدخل لمعاونة المجاهدين ودرء الخطر الصليبي عن المسلمين ، ولذلك فقد عملوا منذ مطلع القرن السادس عشر على بناء سلطة عثمانية في بلاد المغرب العربي في مقابل انحسار الوجود العسكري الاسباني والبرتغال ، والعمل على تقوية روح التضامن الإسلامي ورفع الروح الدينية للدولة الإسلامية العثمانية مع الإمارات التي كانت توشك على السقوط ومقتضيات التبعية لهذه الدويلات للدولة الإسلامية الكبرى والولاء للخلافة الإسلامية على حساب الوحدات السياسية الصغيرة والاحتواء في ظل الخلافة العثمانية وقوفا لحركة الاستيطان الأوروبي الأيبيري التي ترفع راية الصليب(٢٢).

وفيما يلي توضيحا للدور الجهادي العظيم الذي قام لمناوئة الاحتلال ، وكان له الفضل الأكبر لدخول هذه المنطقة في ظل الدولة العثمانية التي عملت بعد ذلك على تكميل ذلك الدور الجهادي.

هوامش الفصل الثاني

١- الدولة الموحدية : هي دولة إسلامية قامت بالمغرب والأندلس ما بين عامي (١١٣٠-١٢٦٩م) ، تأسست على يد قبيلتي زناتة ومصمودة البربريتين ، قام الموحدون بقيادة عبد المؤمن بن علي بإنقاذ الأندلس من الهجمات الصليبية واستطاعوا تقويتها وضمها بعد ذلك لملكهم بالمغرب ، استطاع الخليفة الموحدي الأشهر أبو يوسف الملقب بالمنصور (١١٨٤-١١٩٩م) من هزيمة الصليبيين في موقعة الأرك العظيمة عام ١١٩٥م ، لكن الموحدين تلقوا هزيمة قاسية بعد ذلك في معركة العقاب عام ١٢١٢م والتي تعتبر بداية نهاية المسلمين في الأندلس ، ولقد توالت بعد تلك سقوط القواعد الإسلامية الكبرى في يد النصارى.

٢- حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٤م ، ص٢٣٥.

٣- فرناندو وإيزابيلا : فرناندو الثاني هو ملك مملكة أراجون إحدى الممالك الصليبية في شبه جزيرة أيبيريا ، وإيزابيلا الأولى هي ملكة مملكة قشتالة ، تزوجا سرا عام ١٤٦٩م موحدين بذلك مملكتهما في عام ١٤٧٤م ، دخلا في حرب مع غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس حتى سقطت عام ١٤٩٢م.

٤- المرجع السابق ، ص٢٣٤.

٥- جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، الجزء الثالث ، الدار القومية للطباعة والنشر ، عام ١٩٦٦م ، ص٣.

٦- ممدوح حسين / شاكر مصطفى ، الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري ، دار عمار بالأردن ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٨م ، ص٤٩٩ : ٥٠٢.

٧- المرجع السابق ، ص٢٣ ، ٢٤.

٨- المرجع السابق ، علي الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص١٩٣ ، نقلا عن يوسف الثقفي ، دراسات متميزة في العلاقات بين الشرق والغرب ص٥٨.

٩- المرجع السابق ، ص١٩٣.

١٠- المرجع السابق ، إبراهيم طرخان ، البرتغاليون في غرب إفريقيا ، ص٢٠ : ٢٣.

١١- شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، ص٤٤.

١٢- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، الجزء الرابع ، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، دار الكتاب - الدار البيضاء عام ١٩٥٥م ، ص٩٢.

١٣- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير الخ ، ص٤٧.

١٤- المرجع السابق ، ص٤٩.

١٥- المرجع السابق ، أبو العباس الناصري ، الاستقصا الخ ، ص١١٠.

١٦- إبراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب ، قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية في القرن السادس

عشر الميلادي ، دار الثقافة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٩م ، ص٢٦ : ٢٨.

١٧- الموريسكيون هم المسلمون الباقون في الأندلس بعد انتهاء الحكم الإسلامي فيها ، وقد أصبحت قضية سميت بالقضية الموريسكية بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية بالأندلس عام ١٤٩٢م ، ولم تنتهي هذه القضية إلا بطرد المسلمين من الأندلس نهائيا في مستهل القرن السابع عشر.

١٨- محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلي المغرب ، أفريقيا الشرق عام ١٩٩٨م ، ص٨٥.

١٩- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير السخ ، ص٨٠ : ٨٣.

٢٠- المرجع السابق ، ص٨٠ : ٨٣.

٢١- شارل الخامس (شارلكان) : هو شارل هابسبورج ملك اسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وهو حفيد الملك فرنناندو موحد اسبانيا ، ولد عام ١٥٠٠م ، تم تتويجه عام ١٥٢٠م حكم إمبراطورية لم يشهد لها مثيل في اتساعها ، يعده المؤرخون من أعظم شخصيات التاريخ الأوروبي ، دخل تحت حكمه كل من إيطاليا وألمانيا والنمسا واسبانيا وهولندا والأراضي المنخفضة وكثير من جزر البحر المتوسط بالإضافة إلي ممتلكات اسبانيا فيما وراء البحار التي استطاع الاستيلاء عليها مثل فلوريدا وكوبا والمكسيك وجواتيمالا وهندوراس وبيرو وشيلي. وأما أعدائه فكان على رأسهم السلطان العثماني سليمان القانوني الذي كان بمثابة الشوكة في حلقه وكان الصراع يجري بينهما دائما علي جزر

وسواحل البحر المتوسط خاصة الغربية منها بعد تبنـي السـلطان سليمان حركة الجهاد البحري غربي المتوسط ، تـوفى شـارلكان عام ١٥٥٨م.

٢٢- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة المغـرب العربـي ، الجـزء الخامس ، مكتبة مدبولي – القاهرة ، ص٥٥.

الفصل الثالث

دور الجهاد البحري في تدعيم

النفوذ العثماني غربي البحر المتوسط

- الأخوان برباروسا ونشأة الجهاد البحري.
- عروج بربروسا يتزعم الجهاد البحري.
- خير الدين بربروسا والاتصال بالدولة العثمانية.
- دور الجهاد البحري وأثره في تقوية الأسطول العثماني.

الفصل الثالث

دور الجهاد البحري في تدعيم النفوذ العثماني غربي البحر المتوسط

الأخوان برباروسا ونشأة الجهد البحري :

كما سبق ذكره في الفصل السابق ، أنه قد بدأت تتكون حركات جهادية في الشمال الأفريقي نتيجة لعدة عوامل أهمها ، الحرب الصليبية التي شنتها كل من اسبانيا والبرتغال على المسلمين في الأندلس ، مما أدى إلي نزوح أعداد كبيرة منهم إلي الشمال الإفريقي ، وأدى ذلك إلي متابعة الأسبان والبرتغاليين لهم وتشكيل العديد من التحالفات الصليبية لشن حرب شاملة على المسلمين في البحر المتوسط .

وقد أدى كل ذلك إلي ظهور تلك القوة الإسلامية الجديدة في جهادها والتي اتبعت أسلوب الكر والفر في البحر ، بسبب عدم مقدرتها في الدخول في حرب نظامية ضد القوى المسيحية من أسبان وبرتغاليين وفرسان القديس يوحنا وغيرهم[1].

وقد حاول الكثير من المؤرخين الأوروبيين النيل من طبيعة الحركة الجهادية في البحر المتوسط ، وأصروا وصف قادتها بالقراصنة ، بل إنهم نعتوا الحركة الجهادية بجملتها بأنها حركة قرصنة واسعة النطاق تهدف إلي السلب والنهب والتخريب لا إلي الجهاد.

ويصر فريق آخر من المؤرخين والباحثين الأوروبيين على أن الفضل في نجاح هؤلاء الرؤساء البحريين المسلمين إنما يرجع إلى أصولهم المسيحية الأولى ، فقد كانوا يونانيين أو ايطاليين أو ألبانيين قبل أن يعتنقوا الإسلام ، وقد استهدف هذا الفريق من المؤرخين والباحثين تصوير القادة البحريين المسلمين المغاربة بأنهم أجانب عن الدولة أو أنهم

مجردون من المبادئ الخلقية ، وأن هدفهم الأسمى هو خوض المعـــارك جريا وراء المغانم يظفرون بها.

ولأوغل هؤلاء المؤرخون في الـــتهكم علـــيهم والســـخرية بهـــم ليوضحوا في زعمهم وضاعة أصلهم ، فقالوا عن بيالي باشا أنـــه كـــان اسكافي ، وقالوا عن قلج علي أن والده كان صائد ســـمك ، وهكـــذا لـــم يغادروا صغيرة ولا كبيرة لقادة الأسطول العثماني المسلمين إلا أحصوها مع أن هؤلاء القادة كانوا مثلا أعلى في الفدائية والبطولة في المعارك التي خاضوها ضد تكتلات صليبية دولية . وهذا الرأي لا يقدح فيهم بقدر مـــا يقدح في الدولة العثمانية التي تعهدتهم بالتدريب في أسطولها فخرجوا قادة أفذاذا استطاعوا أن يشقوا طريقهم في حياة البحر ، وأن يخوضوا بنجـــاح دفاعا عن دينهم ، صراعا صليبيا ضاريا ضد دولتين بحريتين كبيـــرتين هما اسبانيا والبرتغال. فالوصف الذي يستحقه هؤلاء القادة ورجالهم هـــو أنهم مجاهدون إسلاميون خاضوا صراعا ضد دول أرادت الاستيلاء على أرضهم وتحويل سكانها إلي المسيحية وطمس عروبتهم(٢).

لم تكن الحركة الجهادية البحرية ذات تنظيم ذو أثر كبيـــر قبـــل ظهور الأخوان عروج وخير الدين برباروسا(٣). لقد اختلفت المصادر في أصل الأخوان برباروسا ، فلقد قالت بعض المصادر أنهـــم مـــن أصـــل مسيحي من جزيرة مدللي إحدى جزر بحر الأرخبيل(٤) ، وهناك من يقول أن أصلهما من أب تركي وأم أندلسية كان لها الأثر على أولادهـــا فـــي تحويل نشاطهما شطر بلاد الأندلس التي كانت تئن في ذلك الوقـــت مـــن بطش الأسبان والبرتغاليين.

ويذكر المؤرخ التركي عزيز سامح ألتر ، أنه من أسباب اتجـــاه عروج إلي الجهاد البحري بعد أن كان يعمل بالتجارة هو تعرضه لهجوم

من قبل فرسان جزيرة رودس الذين كانوا يمارسون السلب والنهب خاصة للسفن الإسلامية ، وغدوا قطاعا للطرق البحرية في وقت لم يكن هناك قانونا ينظم أعمال البحار ، وإزاء ما فعله هؤلاء الفرسان به وبأخيه فقد أقسم على منازعة قطاع الطرق المسيحيين المتعصبين ، ونذر نفسه لذلك[٥].

لقد كان نشاط الأخوان برباروسا في بادئ الأمر يقتصر على شرق البحر المتوسط ، لمهاجمة سفن القديس يوحنا المتمركزة في جزيرة رودس ، إلي جانب أخذ السفن المسيحية المحملة بالبضائع كغنائم. ولقد دخل عروج في خدمة الدولة المملوكية وأصبح رئيسا لإحدى السفن القديمة المسماة (قادرغة) ، وقد تلقى مساعدات من الأمير قورقود والي انطاليا عندما كان يمارس نشاطه في البحر بجد ونشاط ، وقد ظل فرسان رودس يبحثون عن هذا الذي ألقى الرعب في قلوبهم في البحر المتوسط[٦].

ولقد أدى ضراوة الصراع بين القوى المسيحية وبين المسلمين في الأندلس وشمال أفريقيا والذي اشتد في مطلع القرن السادس عشر أن ينقل الأخوان بربالروسا نشاطهما إلي الحوض الغربي للبحر المتوسط ، خاصة بعد أن استطاع الأسبان الاستيلاء على العديد من المراكز الهامة في الشمال الإفريقي.

ويذكر المؤرخون الأجانب أن عروج قد نال شهرته من القرصنة في المياه الغربية ، وهذا صحيح ومؤكد ، ومن الممكن أن يكون قد شوهد بعض الرياس الأتراك في المياه الغربية قبل آل بربالروسا ، ولكن من المؤكد أن ذهاب الأخوان بربالروسا الي المغرب سنة ١٥١٣م[٧] ، كان له العامل الأكبر في تأثير حركة الجهاد البحري في تلك المنطقة.

ولقد أصبح الجهاد البحري ذائع الصيت ، لما كان يتحصل عليه من غنائم كثيرة من القوى المسيحية في البحر المتوسط ، ولذلك فقد جذب العديد من الجهات التي لا هم لها إلا تلك الغنائم ، وكان من هؤلاء سلطان الدولة الحفصية في تونس. ولقد قام أفراد هذه الأسرة بمساعدة المجاهدين فقط للحصول على نصيب من تلك الغنائم.

وبعد أن قويت شوكة آل برباروسا بعض الشيء وأصبح لهم الكثير من الأنصار ، كان يتوجب عليهم إيجاد مركزا ينطلقون منه ويعودون إليه إذا شعروا بالخطر ، لذلك توجهوا إلى سلطان الدولة الحفصية في تونس والذي بهرته الغنائم العظيمة التي يتحصل عليها المجاهدون ، فقدموا له الهدايا وطلبوا منه منحهم مكانا يلجأون إليه ، ووافق السلطان الحفصي على ذلك مقابل دفع خمس الغنائم شريطة ألا يتخاصموا مع سكان المنطقة. وقد منحهم مكانا في حلق الوادي يسمى (جالطة) للإقامة فيه بشكل دائم فعمل الأخوان على تقوية مركزهم وحصنوه بشكل قوى ومن ثم خرجوا إلى البحر باحثين عن الغنائم البحرية المسيحية[٨].

عروج برباروسا يتزعم الجهاد البحري :

وما أن استقر الأخوان برباروسا في حلق الوادي شهور معدودة إلا وطبقت شهرتهما الآفاق ، سواء في المغرب العربي أو في العالم المسيحي من كثرة ما هاجموا من السفن المسيحية ، ومنذ ذلك الحين بدأت شعبيتهما في الازدياد على صعيد المسلمين في الشمال الأفريقي الذين بدأوا في الانضمام إليهما للجهاد ضد الصليبيين.

ولقد طلب رجال القبائل من عروج أن يساعدهم على استرداد ميناء بجاية من الأسبان ، وكانت بجاية تعتبر أكبر ميناء في المنطقة الشرقية من المغرب الأوسط في ذلك الوقت[٩]. فوافق عروج على طلبهم

وبدأ في العمل على استرداد هذا الميناء الهام ، فكان عليه نقل قاعدة عملياته بالقرب من الميناء ، وفعلا انتقل مع رجاله إلى ميناء جيجل شرقي الجزائر عام ١٥١٤م. وبالفعل استطاع الأخوان بربا روسا مقاومة الأسبان مقاومة شديدة ، وعلى أثر المعارك القائمة بين الفريقين جرح الريس عروج في يده اليسرى جرحا بليغا اضطر من جرائه الي قطع يده ولكن لم يثنيه ذلك عن مواصلة الجهاد في سبيل الله.

ولقد تصدى سكان الشمال الإفريقي للأسبان بكل شجاعة وأعلنوا تمردهم احتجاجا على أعمال العنف والاضطهاد التي يمارسونها ضدهم ، وتزعم المرابطون الثورة والجهاد ، ولقد تبنى أحمد بن القاضي فكرة الجهاد فلبت القبائل المجاورة دعوته وانضمت إليه وأيدته. صمم أحمد بن القاضي على إخراج الأسبان من قلعة بنيون ، ولكنه لم يتمكن من ذلك لأن القلعة المذكورة بنيت فوق جزيرة صخرية تبعد عن مدينة الجزائر حوالي ٣٠٠م ، ولقد أدى تمركز الاسبان بها إلى التحكم بمدخل ومخرج المدينة فتسببوا في شل الأعمال البحرية الجزائرية ، علاوة على ذلك فقد فرضوا على سكان المدينة تقديم ضرائب نقدية وعينية أرهقت الجزائريين وأشعرتهم بالذل والعار. وهكذا التجأ سكان الجزائر للاستنجاد بعروج وطلبوا منه المساعدة وكتبوا له عهدا بالسماح له بالعيش والإقامة في مدينة الجزائر ، فقبل الريس عروج طلبهم بكل سرور ، وقبل أن يهم بالهجوم على حصن البنيون احتل شرشال وقصد بذلك تأمين ظهره وجعلها ملتجأ وقت الشدة(١٠).

وبعد ذلك أرسل الريس عروج حملة لتهديد حصن البنيون ، ونجح في صد هجوم اسباني عن المدينة عام ١٥١٦م ، وتمكن من إقامة حكمه على الساحل المواجه للجزيرة الخاضعة للأسبان ، وساعده هذا

النجاح على أن يؤسس بصفته قائد تحرير حكومة عسكرية تحت قيادته لتضم إليها عددا كبيرا من القبائل وسكان المدن ، فاستولى بذلك على أقاليم المغرب الأوسط الواحد بعد الآخر، وأقام بها حاميات. وقد أدى نجاحه إلى اضمحلال معظم القيادات الأهلية القديمة أمام نمو هذه السلطة الجديدة[١١].

ومنذ ذلك الحين فرض آل بربا روسا ومن تبعهم من المجاهدين سطوتهم على مياه البحر المتوسط الغربية مما أشعر المسيحيين بالضيق الشديد ، ولحق بهم من جراء ذلك أضرارا كبيرة. ويذكر المؤرخ عزيز آلتر أن السفن المسيحية كانت تستسلم مباشرة دون مقاومة لدى سماع طاقمها باسم بربا روسا مثل الفأر لدى سماعه صوت الهر ، حتى أن الريس سنان القائد العثماني حينما كان يتجول في عرض البحر ويلتقى بسفينة معادية وتجنبا لحدوث أية مقاومة كان يرفع شارة باربا روسا فتستسلم السفينة[١٢].

ويذكر أن الفرنسيين كانوا من أكثر المتضررين مما يفعل المجاهدون ، فحاولوا احتلال تونس للحد من سطوة المجاهدين وزيادة نفوذهم على الساحل الأفريقي ، حيث أنزل الأسطول الفرنسي جنوده في بنزرت ثم حلق الوادي ، ولكنهم اصطدموا هناك بالريس خير الدين الذي هزمهم شر هزيمة ، بل ووقع معظم اسطولهم غنيمة بيد خير الدين.

وهكذا عمل المجاهدون بعد تمركزهم في الجزائر على تشكيل حكومة قوية في شمال أفريقيا شكلت خطرا كبيرا على الحكومات المسيحية ، وخاصة اسبانيا التي اعتبرت الشمال الأفريقي مناطق نفوذ لها وعلى أنها لقمة سائغة يمكن ابتلاعها متى شاءت ، ولكن الأحداث تغيرت

وطرأ على المنطقة مستجدات جديدة شملت مختلف مناطق الشمال الأفريقي ، اختل على أثرها التوازن الاسباني[١٣].

ولقد ازداد الأسبان حنقا على ذلك النفوذ الجهادي في شمال أفريقيا خاصة وأن عروج قد عمل بكل قوته على إنقاذ الكثير من المورسكيين الذين طلبوا مساعدته في الأندلس، ولقد ذاع صيته أكثر بعد ما حققه من إنقاذ الآلاف منهم ونقلهم إلى بلاد البربر[١٤].

وكان لنجاح عروج أصداء واسعة في تلمسان عاصمة بني زيان في غربي الجزائر ، إذ ظهر فيها اتجاه نحو توحيد الجهود مع هذه السلطة البحرية المجاهدة ، خاصة أن بني زيان هادنوا الأسبان الذين كانوا يحتلون وهران[١٥] والمرسى الكبير في ذلك الوقت ، وتحرج موقف المسلمين حين استنجد آخر حكام بني زيان بالأسبان الذين رحبوا بهذا التقارب وكانوا يخشون هجوم عروج على وهران[١٦].

وهكذا خشي الأسبان على نفوذهم في الجزائر من التأثر ، فاتفقوا مع الرياس المحليين بغية توجيه ضربة شديدة تنهي نفوذ المجاهدين ، إضافة إلى ذلك تحالف بعض الأعراب مع الأسبان المقيمين بقلعة بنيون ، ووجه حاكم تلمسان دعوة رسمية إلى الملك الأسباني يلتمس منه مد يد المساعدة ، وفعلا قام الأسبان بإرسال حملة عسكرية مكونة من خمسة عشر ألف جندي إلى الجزائر لمحاصرتها ، وعلى أثر هذا استعد عروج مع الأتراك والمهاجرين الأندلسيين – الذين احترقت قلوبهم من ظلم الأسبان – للتصدي للأعداء ومقاومتهم ، يساندهم في ذلك بعض الأهال والقبائل.

واصطدم الطرفان في قتال دامي ومستميت انتهى بهزيمة الأسبان وغرق معظم سفنهم ماعدا السفن الثقيلة التي كان يستقلها الجنرال دييجو

دوفيرا قائد الحملة عائدا إلي بلاده ، بعد ما صفع من قبل صـــاحب اليـــد المبتورة الريس عروج فاستقبله الأسبان بأهازيج السخرية[١٧].

وبعد هذا النصر الحاسم على القوات الاسبانية ، قـــرر عـــروج تصفية الخونة والموالين للأسبان ومعاقبة القبائل التي تحالفت معهم ضـــد المجاهدين ، فأرسل إلي أخيه خير الدين خير فتحه للجزائر وطلب منـــه التحرك إلي جيجل فور استلامه الرسالة ، وفعلا وصلها الريس خير الدين وترك بها حامية من خمسمائة شخص.

وعلى الجانب الآخر كان حاكم تنس مولاي عبد الله من عائلة بني زيان ، ومعظم عائلات الشمال الأفريقي في تلك الوقت كانـــت تتصـــف بالقسوة ، وليس غريبا أن يكون أحد أفرادها عدوا لأخيه ، فعند تشوب أي خلاف بسيط يفر الفرد العادي أو الحاكم لتوه و يلتجئ إلي الأسبان ، وهذا ما جعل الأهالي يسأمون من كثرة لجوء هـــؤلاء إلـــي الأسبان وأرادوا التخلص منهم فاستنجدوا بالريس عروج طالبين منه إنقاذهم من مـــولاي عبد الله المتعاون مع الأعداء ، فانتهز عروج هذه الفرصة للتخلص مـــن الموالين للحكم الأجنبي. فبعد أن عين أخاه وكيلا له على الجزائر ، تحرك على رأس قوة تتألف من خمسمائة جندي من الأتراك ومـــن مهـــاجري الأندلس ، فاستولى على مدينة المهدية ومليانة وبليدة ، وأثنـــاء تنقلاتـــه حارب بقسوة بعض العائلات الكبيرة ممن ارتبطت بالأسبان ، قاصدا من عمله جعلها عبرة لكافة عائلات الشمال الأفريقي. وبالقرب من بليدة التقى مع أمير تنس ودارت معركة حامية ، وعلى الرغم من قلة عدد المجاهدين مع عروج ألا أنهم تمكنوا من الانتصار على قوات تنس وظلوا يلاحقونهم حتى دخلوا المدينة[١٨].

أما عن حكام تلمسان نفسها عاصمة بني زيان ، فكانوا موالين هم أيضا للأسبان بشكل كامل ، وكانوا يدفعون ضريبة سنوية باهظة بالإضافة إلي تأمين الأرزاق لعساكرهم الموجودة في وهران والمرسى الكبير والمناطق المجاورة لهم . ولم يستطع الأهالي تحمل الاهانات التي ألحقها الحكام بهم نتيجة لارتباطهم بأعدائهم من الأسبان ، فشكلوا وفدا للذهاب إلي الريس عروج لطلب المساعدة منه لإنقاذهم من هؤلاء . سر الريس عروج من طلب أهالي تلمسان فأعد قواته وتوجه إلي تلمسان بعد أن ترك أخاه خير الدين نائبا له في الجزائر.

وعند وصول عروج وقواته إلي تلمسان سارع الأهالي بفتح الأبواب له واستقبلوه بالترحاب ، وعندئذ فر أبو حمو حاكم تلمسان إلى وهران ومنها إلي اسبانيا طالبا النجدة ، واستطاع بذلك عروج إنهاء حكم بني زيان في تلمسان وإعلان نفسه حاكما عليها ، ثم استطاع بعد ذلك إخضاع بعض المناطق والقبائل المحيطة بها.

رأى الأسبان خطورة الأوضاع في الجزائر وشعروا بالخطر الذي يتهددهم في مراكزهم الكبيرة في وهران والمرسى الكبير ، وكان لابد لهم من عمل حاسم ضد المجاهدين وانتزاع تلمسان منهم . وفعلا أعدت العدة لغزو تلمسان ومحاصرتها ، وتم إرسال قوات إضافية من اسبانيا بلغ عددها عشرة آلاف جندي ، وتحرك الجمع نحو تلمسان ، وعلى الفور عمد قائد الحملة الاسبانية إلي فرض حصار محكم وعنيف على تلمسان ، لقاء ذلك قام الريس عروج بالدفاع عن المدينة بشكل مستميت ، ودام الحصار ستة أشهر استمر خلالها القتال ليل نهار ، استطاع الأعداء بعدها السيطرة على نقاط الاستحكام فأقيمت المتاريس داخل المدينة ، تحولت المعركة بعدها الي قتال شوارع.

وعندما كانت المعركة على أشدها وفي أدق لحظاتها ، انسحب معظم الأهالي الذين قدموا سويا مع عروج ولم يبق في أرض المعركة سوى خمسمائة مقاتل ظلوا يقاتلون بقيادة عروج ولكن دون جدوى ، فاستغل المقاتلون ظلام الليل ليتمكنوا من اختراق صفوف الأعداء والوصول إلى الساحل لانتظار سفن خير الدين المتوقع وصولها . لم يشعر الأسبان بخروج عروج وقواته إلا بعد عدة ساعات ، وعندما علموا بذلك كلفوا الخيالة بملاحقتهم وفي اليوم الثاني لحقوا بهم ، وأدرك عروج عدم مقدرته بمن معه من القلة على المواجهة ، ومع ذلك بدأ في التصدي لهم في معركة لا خيار فيها ، وظل يقاتل رغم يده المقطوعة إلى أن استشهد حيث قطعوا رأسه وحملوه مع ألبسته البحرية المزركشة إلى وهران وأرسلت بعدها إلى اسبانيا وقدمت هدية إلى كنيسة (سانت جيروم) في قرطبة ، فصنع منها رجال الدين هناك شعارا يسمى (شارة بارباروسا)[٢٠] وكان ذلك عام ١٥١٨م.

هكذا كان استشهاد البطل الأبتر الذي استطاع أن يؤسس الحكومة الأولى المجاهدة في الجزائر التي أصبحت نواة للسيطرة العثمانية على الشمال الافريقي فيما بعد.

ويقول عنه شارل أندريه جوليان : (رغم أن مغامرة عروج العظيمة الشأن توقفت في الرابعة والأربعين من عمره فانه استطاع أن يبوئ مدينة الجزائر وبلاد البربر مكانة الدول العظمى)[٢١].

ويقول دي غرامونت : (من خلال الاطلاع على كتب التاريخ المترجمة والمنقولة منها ، لم أعثر على وصف مشابه تماما للوصف الذي

وصف به الريس عروج ، وهذا شئ نادر ، والريس عروج كان شجاعا في جهاده ، مدافعا عن دينه واسلامه ضد أعدائه ، وقد عبر عن ذلك من خلال حروبه البرية والبحرية)[٢٢].

وهكذا نجح عروج قبل استشهاده في ضم معظم صفوف الشعب الجزائري وقرب بينه وبين سائر مسلمي شمال افريقيا في كفاحهم ضد العدو المشترك وخلفه أخوه خير الدين بربار وسا في قيادة عمليات الجهاد في بلاد المغرب الكبير[٢٣].

خير الدين بربار وسا والاتصال بالدولة العثمانية :

استلم الريس خير الدين القيادة بتاريخ ٩٢٤هـ/١٥١٨م وهو متأثر بسبب هزيمة أخيه عروج ومقتله مع أفضل المجاهدين ممن كان يعتمد عليهم ، وفي نفس الوقت لم تعلن البلاد خضوعها له كما فعلوا مع الريس عروج لشعورهم بأن خير الدين لن يكون بديلا عن أخيه ، كما أعلنت القبائل المؤيدة لعروج عصيانها وتمردها على الزعيم الجديد.

ولقد استغل الأسبان كل هذه المصاعب التي تواجه خير الدين واهتزاز مكانته في الجزائر وباشروا بالتحرك لطرد جميع المجاهدين من البلاد. فوجد خير الدين نفسه إزاء كل هذه النكبات في وضع لا يحسد عليه إطلاقا ، ولو كان شخصا آخر لا يتمتع بنفس صفاته لترك كل هذا ورحل آثرا السلامة ، لكن الريس خير الدين لم يكن فردا عاديا فقد اتصف إلى جانب الشجاعة والإقدام بالحنكة السياسية ،فحسن تصرفه وهدوء أعصابه تجاه الأزمات مكنه من تحقيق أعمال عجز عنها الريس عروج نفسه فهو لم يكن يعرض نفسه للخطر إلا بشكل نسبي وبالحدود التي ترهب أعداءه وترفعه لدى أصدقائه . لذلك أدرك خير الدين بتفكيره السليم ومحاكاته للواقع أنه لن يستطيع مواجهة هؤلاء الأعداء بمفرده ،

فله نكلؤه في نهاية المطاف إلي أنه بحاجة إلي حماية دولة قوية يستند عليها في أوقات الشدة[٢٤].

وفي ذلك الوقت كانت الدولة العثمانية دولة إسلامية فتية تشق طريقها وسط العمالقة بقوة وإصرار وتكتسح أراضي شرق أوروبا بالفتوحات ، بل ووصل سلطانها إلي مصر وبر الشام عام ١٥١٧م ، وكانت هي الدولة الإسلامية الوحيدة التي وضعت على كاهلها عبء الدفاع عن الإسلام والمسلمين ومناهضة الإمبراطورية الرومانية ومحاربتها في كل مكان . لذلك قرر خير الدين الخضوع لسلطان الدولة العثمانية والاحتماء بها والحرب من أجلها ، بذلك يضمن أن يكون مرهوب الجانب من جانب الأعداء وخاصة الأسبان ، بالإضافة إلي أمداده بالسلاح والرجال من قبل الدولة العثمانية.

ولقد قام الدكتور عبد الجليل التميمي بترجمة وثيقة تركية محفوظة في دار المحفوظات التاريخية باستانبول (طوب قابي سراي) رقمها (٤٦٥٦) وهذه الوثيقة هي رسالة موجهة من سكان بلدة الجزائر إلي السلطان سليم الأول السلطان العثماني بعد عودته من فتح مصر إلي استانبول ، وهي مؤرخة بعام ٩٢٥ للهجرة الموافق ١٥١٩م ، وقد كتبت هذه الرسالة بأمر من خير الدين وكان غرضها ربط الجزائر بالدولة العثمانية[٢٥].

وتعتبر هذه الرسالة شاهدا على أحوال الجزائر السياسية عام ١٥١٩م ، حيث أوضحت هذه الوثيقة الهامة الكثير من الأحداث التي أدت في النهاية إلي جعل خير الدين وأهالي الجزائر يطلبون العون من السلطان العثماني والانطواء طواعية تحت سلطة الدولة العثمانية.

ولقد أوضحت الرسالة أيضا المدى الذي كان يتمتع به خير الدين من شعبية وسمعة طيبة لدى الأهالي ، ولقد أكدت الرسالة إلي أنه الرجل الذي حكم بعدالة مطبقا تعاليم الإسلام ، كما أنه أظهر الشجاعة عندما (قادنا) إلي الجهاد في سبيل الله بنية حسنة وقلب صادق كما تقول الرسالة ولقد أوضحت أيضا أن خير الدين كان يهدف القيام بنفسه بزيارة استانبول غير أن زعماء المدينة توسلوا إليه أن يبقى بالجزائر خوفا من محاربة الأعداء. ولقد كان اختيار خير الدين لسفيره وهو الفقيه العالم أحمد بن القاضي كان حكيما ، فقد أراد أن يدلل للسلطان عن طريق أحد شخصيات البلاد العلمية والحربية أن الأهالي متعلقون بشدة بالباب العالي وربط البلاد بالإمبراطورية العثمانية ، وليس رغبة شخصية من خير الدين[٢٦].

وفي النهاية نجحت هذه الرسالة في مسعاها ، فقد سارع السلطان سليم الأول إلي منح رتبة بكلر بك (أمير الأمراء) إلي خير الدين برباروسا ، وهي رتبة تخول لصاحبها أن يكون نائبا للسلطان في هذه البقاع وقائدا أعلى للقوات المسلحة في إقليمه ممثلا للسلطان ، وكان من مدلولات منح هذه الرتبة الرفيعة – التي لم يكن في الإمبراطورية كلها من يحملها سوى بكلر بك الروم ايلي (البلقان) وبكلر بك أناضولي – أن البلاد التابعة لخير الدين تصبح تحت السيادة العثمانية ، وأن أي اعتداء خارجي على أراضيها يعتبر اعتداء على الدولة العثمانية ودعم السلطان سليم هذا القرار بقرارات تنفيذية ، إذ أرسل إلي خير الدين قوة من سلاح المدفعية العثمانية كما أرسل ألفين من جنود الانكشارية ومنذ ذلك الوقت (عام ١٥١٩م) بدأ الانكشارية يظهرون في الحياة العسكرية والسياسية في الأقاليم العثمانية في شمال أفريقيا بحيث أصبحوا عنصرا بارزا ومؤثرا على سير الأحداث ، وأذن السلطان سليم في ذات الوقت لمن يشاء من

رعاياه المسلمين في السفر للجزائر والانخراط في صفوف المجاهدين ، وقرر منح المتطوعين الذين يذهبون إلي هناك للجهاد الامتيازات المقررة للفيالق الانكشارية تشجيعا لهم على الانضمام إلي كتائب المجاهدين ، ولذلك فقد أقبل سكان الأناضول على السفر إلي الجزائر والتطوع في عمليات الجهاد[٣٧].

أما على الجانب العثماني فقد كانت تلك الرسالة موافقة تماما لهوى السلطان العثماني سليم الأول الذي كان عائدا لتوه من فتح مصر ، وبعد أن دان له معظم الشرق العربي بعد هزيمته للدولة الصفوية ، فقد كانت سيطرته على الجزائر هامة في ذلك الوقت لتأمين حدود مصر الغربية من ناحية ، ومن ناحية أخرى وضع قدم الدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط كان هاما في إطار مواجهاته المستمرة للأسبان والبرتغاليين الذين سيطروا على معظم الطرق البحرية وانتزعوا التجارة من أيد المسلمين ، هذا إلي جانب مساعدة مسلمي الأندلس المضطهدين والفارين من القمع الأسباني ، ومحاولة إعادة الحكم الإسلامي إلي الأندلس بعد فشل الحكام المسلمين من قبل في مناصرة مسلمي الأندلس الذين بعثوا بكثير من رسائل الاستغاثة ، وكان منها رسائل موجهه إلي سلاطين العثمانيين من أمثال محمد الفاتح وبايزيد الثاني ، ولكن أوضاع الدولة في ذلك الوقت وبعدها الجغرافي لم يمكنهم من إغاثة إخوانهم في الدين.

ومنذ ذلك الحين بدأ العثمانيون العمل المستمر والمتواصل لتدعيم نفوذهم غربي المتوسط ، ومحاولة إخضاع باقي أقاليم المغرب الكبير لمجابهة الدول الصليبية والحد من نفوذها ، وقد عمل الأهالي في تلك المناطق على مساعدة العثمانيين لمواجهة حكام المغرب العرب الموالين

للأسبان ، وأصبحت بذلك الجزائر ركيزة حربية للدولة العثمانية في المغرب العربي وغربي المتوسط ، استطاع من خلالها السلطان سليمان القانوني الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه عام ١٥٢٠م أن يزيد من السيطرة العثمانية وأن يمدها إلي تونس وطرابلس بمساعدة رؤساء البحر المجاهدين، الذين عملوا على تدعيم ذلك النفوذ إلي جانب تقوية الأسطول العثماني الذي لم يكن في ذلك الوقت ذو شأن عظيم كما سيصبح بعد ذلك تحت إمرة رؤساء البحر المجاهدين .

دور الجهاد البحري وأثره في تقوية الأسطول العثماني :

من المعروف أن الدولة العثمانية كانت تعتمد على القوات البرية ولم يكن لها أية قوة بحرية تذكر ، فكل حروبها في أوروبا وفتوحاتها الأولى كانت تعتمد على الجيش البري ، ذلك لأن كل أعدائها في ذلك الوقت كانوا أيضا يعتمدون على القوة البرية من مشاة ومدفعية وفرسان من أمثال الصرب والمجر ، ولكن بمضي الوقت وبامتداد الأراضي والسواحل العثمانية بدأ العثمانيون الشعور بضرورة أنشاء أسطول قوى لتأمين فتوحاتهم في البلقان والاستيلاء على الجزر المحيطة بهذا الإقليم والقضاء على باقي ممتلكات البيزنطيين ، ولطرد البنادقة والجنويين الذين كانوا يعتمدون على القوة البحرية من المناطق المتعددة التي كانوا قد تغلغلوا فيها[٢٨].

ويقول شارل بروكلمان : (إن انتصار البنادقة على العثمانيين في جاليبولي سنة ١٤١٩م ، هو الذي حملهم على التفكير جديا في أنشاء أسطول بحري ، ولكن محمد الثاني (الفاتح) كان أول من أورث العثمانيين السمعة التي يستحقونها في البحر أيضا)[٢٩].

ولقد استطاع محمد الفاتح بالفعل إنشاء أسطول عثماني ، استطاع بواسطته أن يحقق فتح القسطنطينية ، فلم يكن الهجوم عليها هجوما بريا صرفا بالمدافع والمشاة ، بل استطاع بخطته الرائعة استخدام السفن التي استطاعت الدخول بحيلة بارعة إلى خليج القرن الذهبي ، ومن هناك أخذت في قذف الأسوار ، ولكن الأسطول العثماني في عهد محمد الفاتح وخلفه بايزيد الثاني لم يكن له ذلك التأثير الاستراتيجي على البحر المتوسط ، وفي عهد سليم الأول كانت القوة البرية مازالت هي القوة المؤثرة في حروب العثمانيين سواء مع الصفويين أو مع المماليك في فتح مصر. لكن ابتداء من عهد سليمان القانوني كان للأسطول نشاط لم تشهد له الدولة العثمانية مثيلا من قبل ، فقد أنشأ للأسطول بجانب قاعدته الرئيسية في استانبول ، قواعد بحرية في جزر الأرخبيل وسواحل ألبانيا كما أنشئت قواعد بحرية وترسانة في ميناء السويس يرتكز عليها أسطول البحر الأحمر والبحار الشرقية[٣٠].

ولقد كان ظهور المجاهدين البحريين أمثال الريس خير الدين ومن خلفه تأثيرا كبيرا على تطور الأسطول العثماني ، سواء من ناحية الكم أو الكيف ، وإحكام سيطرته على البحر المتوسط ، خاصة في الأجزاء الغربية منه حيث الشواطئ الإيطالية والأسبانية. ولقد كان تمركز أجزاء كبيرة من الأسطول العثماني في الجزائر وقيادته من قبل رجال البحر المحترفين عاملا مؤثرا في السيطرة على الطرق الملاحية في ذلك البحر ، بالإضافة إلى السيطرة على أجزاء من سواحل أوروبا الغربية ، ويشهد المؤرخون أنه بسبب غزوات المجاهدين البحريين المتواصلة على الشواطئ الأوروبية أصبحت مقفرة وخالية من السكان حتى عمق حوالي أربعة أو خمسة أميال.

يقول بروكلمان : (وحتى إذا رقى سليمان العرش زاد سفنه إلـى ثلاثمائة وفي عهده وفق القرصان خير الدين برباروسا إلـى أن يحمل الهول الذي كان ينطـوي عليـه اسـم العثمـانيين ، حتـى للشـواطئ الاسبانية)[٢١].

ويقول : (وكانت سفن القراصنة العاملة في شاطئ أفريقيا الشمالية تؤلف ابتداء من عهد بربارسا جزءا هاما جدا من الأسطول العثمـاني. فقد كان هؤلاء القراصنة ولتحقون بأسطول الدولة ، زرافات زرافـات ، كلما أزمع السلطان خوض غمار الحرب البحرية لينزلوا في حماية هـذا الأسطول ، أعظم الأذى بتجارة النصارى)[٢٢].

ومنذ أن أصدر السلطان سليمان القانوني فرمانا بترقية خير الدين إلى منصب قائد عام الأسطول العثماني لخبرته وحنكته البحرية إلى جانب خدماته العظيمة التي قدمها للإسلام ، أصبح هذا المنصب رفيع المستوى ذو شأن خاص لم يبلغه أحد من قبل ، فمنذ تعيينه رفعت هذه الوظيفة إلى مرتبة وزير ، ومنح شاغلها ثلاثة أطواخ ورتبة الباشوية ، وأصبح يطلق عليه (قبودان باشا) ، وكانت له الأسبقية على جميع الوزراء الآخـرين ، وكان ترتيبه يأتي مباشرة بعد الصدر الأعظم وشيخ الإسـلام ، وعـين عضوا في الديوان الهمايوني.

وكل هذا يدل على أهمية الأسطول العثماني ودوره في تلك الفترة خاصة منذ تولى المجاهدون البحريون أمر هذا الأسطول وأمـر الجهـاد البحري ضد القوى الصليبية في البحر المتوسط التي أعطت سيطرة شبه مطلقة للقوات العثمانية على الطرق البحرية ومن الأدلة التي تؤكد سيطرة الأسطول العثماني شبه المطلقة على الملاحة في الحوض الغربي للبحـر المتوسط ، هو استغاثة فرنسوا الأول ملك فرنسا– الذي اشتعلت الحـرب

بينه وبين غريمه الإمبراطور شارل الخامس- بالسلطان سليمان القانوني لتخليص ثغر نيس من قوات شارل الخامس والذي استطاع خير الدين تخليصه عام١٥٤٣م[٣٣].

وهذا إن دل فإنما يدل على القوة التي وصل إليها الأسطول العثماني في أبعد نقطة عن الدولة العثمانية في البحر المتوسط ، فلم يكن الأسطول العثماني يرتبط ارتباطا مباشرا بالمركز في استانبول كارتباط باقي أساطيل الدول الأوروبية بالدولة الأم ، وإنما أصبح الأسطول العثماني تحت إمرة رؤساء البحر يصول ويجول دون ارتباطه مباشرة بالعاصمة العثمانية. وتوالت انتصارات الأسطول العثماني في عهد السلطان سليمان القانوني عامة ، والذي اعتمد على قيادة رؤساء البحر حتى بعد موت خير الدين الذي توفي عام ١٥٤٧م ، فقد كان معظمهم من رؤساء البحر المتمرسين في العمل البحري ضد القوى الصليبية ، والذين وهبوا حياتهم للجهاد باسم الإسلام ، فجاءت انتصاراتهم حاسمة وبالغة الأثر ضد النفوذ الصليبي في البحر المتوسط.

استأنف السلطان سليمان القانوني الفتوح في أوروبا بعد توقفها قليلا في عهد أبيه السلطان سليم ، بسبب انشغاله بفتح الشام ومصر ومحاربة الدولة الصفوية ، وهكذا فان السلطان سليمان كان دائما على رأس جيوشه المشغولة بفتح أوروبا والتوسع تجاه الغرب على حساب مملكة المجر وبلاد البلقان وعلى حساب النمسا التي كانت تقع تحت حكم الإمبراطور شارل الخامس العدو الأول للدولة العثمانية ، ولذلك كان على السلطان سليمان تولية من ينوب عنه نيابة مباشرة في غربي المتوسط حتى يتسنى له التضييق على شارلكان في أملاكه في اسبانيا وايطاليا وجزر المتوسط الغربية وتشتيت جهوده بين صد الهجمات العثمانية بقيادة

السلطان في شرق أوروبا ووسطها وبين هجمات الأسطول العثماني على سواحل اسبانيا وإيطاليا في الغرب.

ولقد قام خير الدين بهذه المهمة على خير وجه ، ولذلك كان يقابل في كثير من الأحيان بتحالفات صليبية تشتمل على أساطيل دول أوروبية أهمها أساطيل شاركان والبندقية والبابا والبرتغال ، لكن خير الدين استطاع التصدي لهم ، وهزيمتهم في عدة معارك من أشهرها معركة بروزة[34].

هكذا أصبح خير الدين سيد البحر المتوسط بلا منازع واكتسب احتراما كبيرا هو وروساء الأسطول الآخرين من أمثال الروساء درغوث ومراد وصالح ، وقد أجبر هذا التقدم الملحوظ في السيطرة البحرية العثمانية الإمبراطور شارل الخامس من على التراجع عن أطماعه في الشمال الأفريقي ، إلي جانب محاولته تجنب أية مواجهة مباشرة مع الأساطيل العثمانية في مياه المتوسط . والجدير بالذكر أنه قد أدى تحالف الدولة العثمانية مع فرنسا في القرن السادس عشر لمواجهة التكتل الصليبي المتحالف بقيادة شارل الخامس إلي بروز فرنسا كدولة قومية خلال القرن السادس عشر ، فالأسطول العثماني في غربي المتوسط كان يحمي جناحها الجنوبي ضد أي هجوم يشنه أعداؤها مما أتاح لملوكها تركيز قوتهم في الشمال وتأمين حدود فرنسا القومية ولقد أتاح هذا التحالف للتجارة الفرنسية حرية الانطلاق وحرية الملاحة في كل الموانئ العثمانية وقد نصت المعاهدة على ألا تبحر أى سفينة أجنبية في المياه العثمانية إلا وهي ترفع العلم الفرنسي.

ولقد عمد خير الدين دائما إلي قصف موانئ شرق اسبانيا ومحاولة مساعدة المورسكيين في الأندلس بالعتاد والسلاح لمقاومة السلطة

الاسبانية ، ولقد قام بتهريب الآلاف من سكان الأندلس المسلمين حيث عمل بعد ذلك على توطينهم في الشمال الأفريقي ، واستطاع تكوين جيش كامل منهم ممن رغب في الانتقام من الأسبان أو الجهاد في سبيل الله ، وهكذا استطاع الأسطول العثماني في ظل رئاسة خير الدين ومن تبعه من رؤساء البحر المجاهدين تدعيم السيطرة العثمانية على غربي البحر المتوسط ، وفيما يلي سنرى كيف استطاعوا دعم النفوذ العثماني وإكمال السيطرة على الشمال الأفريقي.

هوامش الفصل الثالث

١- فرسان القديس يوحنا : هى جماعة دينية صليبية محاربة ، ساهمت بشكل بارز في الحروب الصليبية ، أقامت في جزيرة رودس ولكن بعد طردهم منها على يد العثمانيين أقاموا في جزيرة مالطة بأمر من شارلكان الذي سمح لهم بحكم الجزيرة شريطة مساعدته في حروبه ضد المسلمين ، ولقد انبعثت هذه الجماعة من الجماعة الأم الكبيرة والمشهورة باسم (فرسان المعبد) والتي كان لها شهرة واسعة أيام الحروب الصليبية على المشرق.

٢- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، الجزء الثاني ، ص٩٠٥ ، ٩٠٦.

٣- باربا روسا : تعني ذو اللحية الحمراء ، ولقد أطلق هذا اللقب من قبل على فريدريك الأول إمبراطور الجرمان الذي مات عام ١١٩٠م . لقد اشتهر بهذا اللقب خير الدين باشا أحد الأخوين الذي أسس ايالة الجزائر باسم الدولة العثمانية ، ثم أصبح قائدا للبحرية العثمانية ، كان اسمه يرعب الغرب وسفن الغرب لا بل وكانت الأمهات في أوروبا ترعب أولادها باسمه (انظر : محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، هامش (١) ص٢٠٤).

٤- المرجع السابق ، على الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٢٠٧ ، نقلا عن : صلاح العقاد ، المغرب في بداية العصور الحديثة ، ص٣٧.

٥- عزيز سامح التر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة : د. محمود على عامر ، دار النهضة العربية – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٩م ، ص٢٨.

٦- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية الـخ ، ص٢٥١.

٧- المرجع الســابق ، عزيــز ألتــر ، الأتــراك العثمــانيون الـخ ، ص٣٩ ، ٤٠ .

٨- المرجع السابق ، ص٤٣.

٩- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولــة العثمانيــة الـخ ، ص٩٠٦.

١٠- المرجع الســابق ، عزيــز ألتــر ، الأتــراك العثمــانيون الـخ ، ص٥٠ ، ٥١.

١١- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوى ، الدولــة العثمانيــة الـخ ، ص٩٠٧.

١٢- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٤٧.

١٣- المرجع السابق ، ص٥٤.

١٤- شارل أندرى جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، تعريــب : محمــد غزالي / البشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشــر ١٩٨٥م ، ص ٣٢٦

١٥- وهران : هي أكبر مدن الجزائر بعد العاصمة ، تقع بــالقرب مــن حدود المغرب ، يتواجد بها الكثير من المتكلمين بالاسبانية حتى أيام الاستعمار الفرنسي ، كانت وهران أهم معاقل الأسبان في المغرب الأوسط.

١٦- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولــة العثمانيــة دولــة إسلامية الخ ، ص٩٠٧.

١٧- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٥٤ : ٥٦.

١٨- المرجع السابق ، ص٥٦ : ٥٨.

١٩- تلمسان : هي مدينة تقع في وسط المغرب العربي ، تحتل أهمية كبرى نظرا لأهمية موقعها ومركزها الهام ، كانت تلمسان في منتصف القرون الوسطى مركز المغرب الرئيسي ، وقد ظلت محافظة على أهميتها لفترات تاريخية طويلة ، وموقعها المهم دفع كل من المرابطين والموحدين وبني مرين للتهافت عليها وضمها لأملاكهم ، وفي نهاية العصور الوسطى غدت تلمسان مركزا رئيسيا للمبادلات التجارية بين أوروبا والشمال الأفريقي ، لكن مدينة تلمسان لم تحافظ على أهميتها ففي بداية القرن السادس عشر بدأت في الانهيار بسبب تسلط الأسبان عليها ، وشيئا فشيئا بدأ الإهمال والفساد يسودها، ولكن باستقرار المجاهدين في الشمال الأفريقي غدت أرضا محرمة على الأسبان وقد شعر أبو حمو الثالث بالخطر فاتصل بالأسبان واتفق معهم سرا لطرد المجاهدين قبل أن يستفحل خطرهم على المنطقة (انظر : عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ص٥٩ ، ٦٠).

٢٠- المرجع السابق ، ص٦٤ ، ٦٧.

٢١- المرجع السابق ، شارل أندرى جوليان ، تاريخ افريقيا الشمالية ، ص٣٢٨.

٢٢- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٦٨.

٢٣- المرجع السابق ، جلال يحيى ، المغرب الكبير ، ص٢٣.

٢٤- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٧١.

٢٥-نص الرسالة : (إننا ندعو بالسعادة والنصر لمقام السلطنة العلية دعاء يبلغها أقصى الأماني فان عبيدها بالجزائر يكتبون إلي مقامها العالي معبرين ومعترفين لمقامكم العالي بالإجلال والتعظيم أبدا ، وان رسالتنا هذه لا تستطيع أن تستعرض كل الأسرار. أن سعادة أيامكم هي فرحتنا ونحن لزام أموركم وطاعتكم مستبشرين وعليكم لا محالة اعتمادنا فظاهرنا كباطننا مخلص لكم أولا وأخرا. فقد أطعنا أمركم وعبيدكم ليس لهم غير حبا بكم يرفعون إليه غاية الإجلال والتقدير وليس لهم من قصد غير شريف مقامكم العالي. لقد جرت حوادث جليلة ولها أخبار طويلة في نصر المؤمنين وهزيمة أعداء الله ومفادها أن طائفة الطاغية لما استولت على بلاد الأندلس ، انتقلوا منها إلي قلعة وهران للاعتداء على سائر البلاد ، غير أنه بعد استيلائهم على بجاية وطرابلس بقيت الجزائر (بين الكفار) كالنقطة وسط الدائرة ، وبقينا لذلك حيارى متأسفين يحفنا الكفار من كل جانب ولكن تمسكنا بحبل الله المتين واتكلنا عليه . غير أن طائفة الطاغية سدت علينا المطالب هادفة إدخالنا تحت ذمته (سلطته) وقد نظرنا في الأمر ورأينا أن المحن والشدائد تشتد وأن الضرورة تقتضي حقن دماء أنفسنا وخوفا على حريمنا وأموالنا و أولادنا من السبي والتفريق تصالحنا مع أهل التثليث (النصارى) وأنا لله وأنا إليه راجعون. وبعد هذه المضايقة والحصار دخل الكفار إلي وهران وبجاية وطرابلس وكان قصدهم أن يأتوا بسفنهم ويستولون علينا ويأسروننا ويشتتون شملنا فجأة . آنذاك قدم ناصر الدين وحامي للمسلمين المجاهد في سبيل الله عروج باي مع قلة من الغزاة. فقابلناه بالعز والإكرام واستقبلناه لأننا كنا في خوف (من عدونا) فخلصنا بفضل الله. وعروج باي المشار إليه جاءنا من

تونس لإنقاذ بجاية من يد الكفار. فلما وصل إلى القلعة وحاصرها مع المجاهد الفقيه الصالح أبو العباس أحمد بن القاضي زلزلوا أركانها وهدموا بنيانها وشاهد الكفار عندما دخل القلعة المسلمون وهاجموها واستولوا عنوة على برج منها ، اختلال بنيانهم وقرب حتفهم هرب بعض الكفار الموجودين بالقلعة ومثل الباقون بهم . لقد حارب المسلمون الكفار آناء الليل وأطراف النهار من طلوع الشمس إلى غروبها وعلى الرغم من ترك بعض من جماعة عروج القتال ، بقي المشار إليه يقاتل الكفار مع جماعة قليلة ، وكان قد عزم على لقائنا غير أنه وقع شهيدا في حرب تلمسان رحمه الله . وقد حل مكانه أخوه المجاهد في سبيل الله أبو النصر خير الدين وكان له خير خلف ، فقد دافع عنا ولم نعرف منه إلا العدل والإنصاف وإتباع الشرع النبوي الشريف ، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله ومناط آماله سلطتكم العالية مظهرا جلالها وتعظيمها . على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون وكيف لا نحبه وهو المشمر عن ساعد الجد والإقدام ويقود الجهاد معنا في سبيل الله بنية خالصة وقلب صادق متفق الكلمة معنا في الشدة والرخاء لإعلاء كلمة الله. ومفاد ما يريد عبيدكم أعلامه لمقامكم العالي هو أن خير الدين كان قد عزم قصد جنابكم العالي إلا أن عرفاء البلدة المذكورة رفعت أيديها متضرعة إليه حتى لا يرتحل خوفا من الكفار إذ هدفهم هو النيل منا ونحن على غاية الضعف والبلاء ولهذا أرسلنا إلى بابكم العالي الفقيه العالم المدرس أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالي وان

المذكور حامل الكتاب سوف يعرض لحضرتكم ما يجري في هـذه البلاد من الحوادث والسلام ، أوائل ذي القعدة ٩٢٥ للهجرة. (انظر : عبد الجليل التميمي ، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلـى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩م ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، تونس ، عدد ٦ ، يوليو ١٩٧٦م ، ص١١٦ : ١٢٠).

٢٦-عبد الجليل التميمي ، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائـر إلـى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩م ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية تونس ، عدد ٦ ، يوليو ١٩٧٦م ، ص١١٦ : ١٢٠.

٢٧-المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولـة العثمانيـة دولـة إسلامية الخ ، ص٩١١.

٢٨-المرجع السابق ، ص٨٦٦

٢٩-المرجع السابق ، شارل بروكلمان ، تاريخ الشـعوب الإسـلامية ، ص٤٦٨.

٣٠-المرجع السابق ، ص٨٨٧

٣١-المرجع السابق ، شارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسـلامية ، ص ٤٦٩ .

٣٢-المرجع السابق ، ص ٤٧١.

٣٣-المرجع السابق ، عبد العزيـز الشـناوي ، الدولـة العثمانيـة ، ص٨٩٢.

٣٤-معركة بروزة : دارت بـين الـدول الصـليبية المتحالفـة وهـي إمبراطورية شارلكان والبندقية والبابا والبرتغال وبـين الأسـطول العثماني ، بينما الأسطول العثماني يوالي الاستيلاء علـى الجـزر

الايطالية الواحدة بعد الأخرى تجمع قواد الأساطيل المتحالفة في جزيرة كورفو وقد دارت المباحثات فيما بينهم حول تكليف شارلكان بالاستيلاء على الجزائر وتكليف البندقية باسترجاع الجزر التي استولى عليها العثمانيون ، جاء البنادقة الي كورفو أولا ثم تبعتهم أساطيل البابا ، وفي نفس الوقت قام اميرال الأسطول البابوى بالهجوم على قلعة بروزة ثم حاصرها ولما لم يوفق بعد حصاره لها عاد إلي كورفو فور علمه بوصول الاسطول العثماني ، بعد ذلك وصل أندريا دوريا الي كورفو ومعه تسع وأربعون سفينة ، تقدم خير الدين برباروسا بسرعة نحو بروزة بعد أن قصف كفالونيا وذلك لعلمه بتجمع سفن المتحالفين فيها ، ولما لم يتمكن أندريا دوريا من الصمود أما نيران السفن العثمانية قرر التراجع بما معه من سفن المتحالفين ، وانتهت المعركة في ٢٨ سبتمبر عام ١٥٣٩م وكان من نتائجها تحكم العثمانيون الكامل بالبحر المتوسط. (انظر : أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى العصر الذهبي ص٢٦١).

٣٥- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص٩٤ ، ٩٥.

الفصل الرابع
إتمام السيطرة العثمانية على بلدان المغرب العربي

- تأسيس نيابة الجزائر.
- فتح تونس والنزاع مع الأسبان.
- الفتح العثماني لطرابلس الغرب.
- حصار مالطة.
- ثورة المورسكيين ومعركة ليبانتو البحرية.
- إعادة الفتح العثماني لتونس.

الفصل الرابع

إتمام السيطرة العثمانية على بلدان المغرب العربي

تأسيس نيابة الجزائر :

بعد أن أصبح خير الدين نائبا عن السلطان العثماني في إقليم الجزائر ، أدرك صعوبة موقفه وضرورة التحرك السريع لمواجهة الأخطار الخارجية والداخلية التي تعيق استقرار الجزائر كإيالة عثمانية ، وأدرك مع ذلك وجوب اتخاذ الأعمال العسكرية الحاسمة تجاه الأسبان من ناحية ، ومن ناحية أخرى تجاه القبائل وبعض الأهالي الذين لا يريدون استقرارا للحكم العثماني في الشمال الأفريقي.

ولقد كان خير الدين محقا في تخوفه لأن الأسبان وحكام تلمسان كانوا يخططون للهجوم على الجزائر عقب استشهاد الريس عروج ، ولكنهم قرروا الانسحاب نتيجة للخسائر التي تكبدوها ، لكن هذا الانسحاب بالطبع لن يكون انسحابا أبديا ، بل لتنظيم الصفوف ومعاودة الهجوم مرة أخرى ، فقد كان والي وهران مصمما على إخراج الأتراك من الجزائر ، وكان متفقا في الرأى مع حاكم تلمسان ، لذلك فقد عرض على شارلكان الأخطار الناجمة عن بقاء العثمانيين ، وكان شارلكان لديه نية مسبقة بفكرة شن الحرب على العثمانيين وإرغامهم على الخروج من الشمال الإفريقي نهائيا. وهكذا كلف شارلكان نائبه في جزيرة صقلية بإعداد حملة لاحتلال الجزائر ، وفعلا اتجهت هذه الحملة عام ١٥١٩م أولا إلى وهران ثم بعد اتحادها مع قوات تلمسان توجهت للجزائر.

بدأت القوات الاسبانية بالهجوم ، وخلال يومين من بدء المعركة ظهر الإعياء على القوات الاسبانية ، واستغل الريس خير الدين هذا الإنهاك وقام بتكليف فرقة من خمسمائة شخص لتقوم بحرق أقوات الأسبان ومهاجمتهم على الساحل ، مما خدع القوات الاسبانية وجعلهم

يقومون بترك مواقعهم الدفاعية والهجوم على قوات خير الدين ، فاستغل الأتراك فرصة انسحابهم وانقضوا عليهم بكل قوتهم ، فاندفع الأسبان يتسابقون إلى البحر تاركين سلاحهم ، فمات الكثير منهم ومن تمكن من النجاة لم يتمكن من ركوب السفن نتيجة للعاصفة البحرية التي هبت آنذاك. ومنذ ذلك النصر المظفر على الأسبان فاقت شهرة الريس خير الدين شهرة ونفوذ أخيه الريس عروج[١].

ولم تكن هذه الحملة آخر الحملات الاسبانية ، فقد تبعتها حملات أخرى في وقت قصير كان غرضها إنهاء للسيطرة العثمانية التي بدأت تتوسع شرقا وغربا.

ففي عام ١٥٢٠م أرسل خير الدين قوة إلى تنس لاحتلالها ، فطلب قائد تنس النجدة من اسبانيا التي أرسلت خمس عشرة سفينة لمساعدته ، ولكن الريس خير الدين قاد بنفسه قوة بحرية وتوجه مباشرة إلى تنس واحتل قلعتها وأسر خمس سفن وعاد إلى الجزائر . وبينما كانت سفن خير الدين راسية في ميناء الجزائر ، علم خير الدين بوصول الأسطول الاسباني المؤلف من ١١٠ قطعة بحرية ، وعلى الفور خرج خير الدين بسفنه من الميناء وشن هجوما بحريا معاكسا على الأسطول ، وكان هجوما مفاجئا من الخلف مما أدى إلى اضطراب الأسطول الاسباني الذي بدأ يتخبط بعضه ببعض ، وأسفرت المعركة عن هزيمة الأسطول الاسباني هزيمة شديدة ، وتحطمت الكثير من سفن الأسطول ، إلى جانب أسر المئات من البحارة والقباطنة الأسبان[٢].

ولقد عزم خير الدين وبدأ يخطط لإخضاع تلمسان وتونس لسيطرته ، وذلك للأخطار التي تتربص به هناك ، خاصة تونس التي كانت تسيطر على الجزائر فيما مضى ، لهذا فان سلطان تونس الحفصي

اعتبر خير الدين من المارقين الخارجين على حكمه فبدأ هو الآخر يخطط لإعادة الجزائر إلي دائرة نفوذه وطرد خير الدين منها ، وهكذا تحالف السلطان الحفصي مع أحمد بن القاضي الذي كان ضمن الزعماء المحليين الذين عينهم خير الدين على القبائل حتى تكون أكثر هدوءا واستقرارا . وبذلك أصبحت تلك القبائل التي يتزعمها أحمد بن القاضي ضمن التحالف بينه وبين السلطان الحفصي ضد الريس خير الدين ، وبحيلة ماكرة أعلن ابن القاضي تحالفه مع خير الدين في حربه ضد تونس ، وحينما كان خير الدين يحارب القوات التونسية ، انقلب ابن القاضي وجنوده على خير الدين الذي وجد نفسه بين نارين والحق به من جراء هذا خسارة فادحة ، ولم ينج إلا هو والقليل من رجاله .

وعلى أثر هذه الهزيمة التي لحقت بخير الدين ، فقد نفوذه خارج مدينة الجزائر ، كذلك فقد أعلن الجزائريون تمردهم وعصيانهم وأصبح خير الدين شبه محاصر . وبعد تفكير طويل قرر ترك المدينة والرحيل منها ، بعد ما تنكر له الأهالي ، ثم نادى الأشراف والأعيان وطلب منهم إقامة صلح مع حاكم تونس ومن معه من الخونة ، ولكنهم لم يتصوروا مفارقة خير الدين وبدأ الجميع يتساءل عن المصير الذي ينتظرهم بعد ما حققه الريس خير الدين من تضحيات بقصد جعل هذه البلاد نقطة استناد للإسلام ، فكيف يضطر إلي تركها على هذا النحو بعدما عمل خلال ثلاث سنوات على صيانتها ، إضافة إلي ما حققه من انتصارات على الصليبيين والغزاة ، وهكذا رحل خير الدين عن الجزائر متوجها إلي جيجل ، فرحب أهلها بصديقهم القديم هكذا عاد خير الدين إلي حالته ووضعه عام ١٥١٤م مما تطلب منه العمل من جديد ، ففي جيجل أسس قاعدة له غير

قاعدة جزيرة جربة ، في حين ظلت قاعدة جربة مركزا للمتطوعين القادمين من الأناضول[٢].

وبدأ خير الدين العمل من جديد لإعادة الجزائر إلى النفوذ العثماني ، فأنشأ دار الصناعة وبناء السفن في جيجل حتى يتسنى له بناء أسطول قوي لمعاودة الجهاد ضد القوى المسيحية ، وعن طريق الغنائم التي يتحصل عليها من الأسبان وغيرهم يمكنه استعادة قوته من جديد ومعاودة الكرة على الجزائر لاستعادتها والقضاء على ابن القاضي والموالين له.

وبغية توسيع دائرة هجماته استعان الريس خير الدين بالريس ابن الريس شعبان وبقية رؤساء البحر وجمعهم حوله مكونا أسطولا بحريا مؤلفا من أربعين سفينة بحرية ، وبدأ بمهاجمة السواحل الأوروبية المطلة على البحر المتوسط فقلبها رأسا على عقب ، وقد أحس سلطان تونس من جراء ذلك بالخطر الشديد ، فلجأ إلى إرسال الهدايا والوسطاء لإجراء الصلح مع خير الدين ، ولكن الريس خير الدين رفض الصلح وصمم على مهاجمته.

في ذلك الوقت تمكن ابن القاضي من حكم مدينة الجزائر وما حولها ، وقام جنوده بسلب ونهب الأهالي ، وارتكاب العديد من المظالم ، فتذكر الأهالي بالحزن والأسى أيام الريس خير الدين وغدوا أكثر ميلا للحكم العثماني. في نفس الوقت لم يغتنم الأسبان فرصة انسحاب الريس خير الدين من الجزائر بعمل أي هجوم ، فاستغل الريس خير الدين الفرصة وقام بتقوية نفوذه المعنوي والمادي فمنح المجاهدين صلاحيات واسعة وقدم لهم الغنائم الكثيرة ، فضمن بذلك جذب أكبر قوة فدائية للعمل معه ، وخلال السنوات الخمس الواقعة بين عامي ١٥٢٠ – ١٥٢٥م ،

استطاع استعادة قوته ونفوذه القديم ، علما بأن الدولة العثمانية لم تقدم له أية مساعدات مالية خلال هذه الفترة ، فبفضل حنكتـــه وحســـن إدارتـــه للأمور استطاع تأسيس قوة عسكرية جديدة.

أما الجزائريون فقد ضجروا من تصرفات ابن القاضي وجنوده ، وبدأت غالبية الأهالي تبحث عن وسيلة لتأمين الاتصال مع خير الدين من جديد ، وقد ازداد الأمر سوءا بعد رفض ابن القاضي استقبال مســـلمي الأندلس المهاجرين الذين نقلوا إلي أرض الجزائر عـــن طريـــق ســـفن المجاهدين البحريين ، وبما أن قوة الريس خير الدين العسكرية قد كبرت وقويت وبإمكانها التحرك والمهاجمة ، وأن النقمـــة ازدادت علـــى ابـــن القاضي بعد تخليه عن المهاجرين الأندلسيين ، فقد جهز الريس خير الدين قواته وأرسل خبرا إلي الجزائريين يعلمهم بقدومه وتأديبه لابن القاضي ، وفي سنة ١٥٢٥م اتجه خير الدين إلي قبيلة ابن العباس واتفق مع سلطانها ، وبعد ذلك التقى خير الدين مع ابن القاضي في وادي بوقدوره ، وخلال ساعات قليلة انهزم ابن القاضي وولى منسحبا ، وعلى أثر هـــذا أعلـــن عساكر ابن القاضي تمردهم عليه وقطعوا رأسه وقدموه إلي خير الـــدين بعدما عبروا عن أسفهم وندمهم لخيانته وأقسموا على مساندته والوقـــوف إلي جانبه.

وهكذا استعاد خير الدين الحكم في الجزائر عام ١٥٢٥م ، ودخلها دون مقاومة من الأهالي وعمل مباشرة على إعادة الجزائر التي عرفهـــا فبدأ بضرب المتمردين بشدة ، ودأب خلال سنتي ١٥٢٦ و ١٥٢٧م على ملاحقة العصـاه وفرض سيطرته من جديد على الساحل الممتد من جيجل وحتى وهران في الغرب الواقعة تحت الحكم الاسباني[٤].

بعد استتباب الأمر لخير الدين في الجزائر ، وجد أنه من المستحيل ترك الأسبان في حصن البنيون المواجه لمدينة الجزائر ، والذي لم يستطع أخيه عروج من قبل إخراجهم منه ، ومع تردي أوضاع الجنود داخل الحصن وإهمالهم التام من قبل الأسبان سواء من ناحية التأمين أو من ناحية التسليح ، قرر خير الدين ضرب الحصن بشدة وإخلائه تماما من الحامية الاسبانية لتعزيز سلطانه من جهة ، ولضمان الأمن والسلامة لميناء الجزائر من جهة أخرى ، فأرسل الريس خير الدين عام ١٥٢٩م خطابا إلي قائد الحصن بضرورة تسليم الحصن ومغادرته مع جنوده فورا لكن قائد الحصن رد عليه بالرفض ، عندئذ نصب خير الدين بطاريتي مدفعية مقابل القلعة وباشر بقصفها مدة عشرين يوما حتى أحدث خرقا في سورها ، واشتد القتال بين الفريقين حتى انتصر المجاهدون في النهاية ووقعت الحامية المكونة من سبعمائة جندي في الأسر.

وقد أسر قائد الحصن مارتن دي فرج Martin de verge مع كبار ضباطه واقتيدوا إلي قصر خير الدين ، ثم أقام خير الدين حاجزا للأمواج يصل أطلال الحصن والجزيرة بالساحل ، ويستخدم من ناحيته الداخلية كرصيف للسفن وبذلك أوجد ميناءا حصينا وآمنا ترقأ إليه السفن. وإذا كانت سنة ١٥١٩م تعد بداية وصول النفوذ العثماني رسميا إلي شمال افريقيا ، فإن استيلاء خير الدين على البنيون سنة ١٥٢٩م يعد بداية تأسيس ما عرف باسم نيابة الجزائر ، فمنذ ذلك التاريخ تحول ميناء الجزائر إلي عاصمة كبرى للمغرب الأوسط بل ولكل شمال أفريقيا العثمانية بنياباتها الثلاث فيما بعد ، وبدأ استخدام مصطلح الجزائر للدلالة على إقليم المغرب الأوسط ، ولكن ظلت وهران قاعدة اسبانية تهدد الجزائر حتى نهاية القرن الثامن عشر عام ١٧٩٢م[٥].

بعد استتباب الأمر في الجزائر وتأسيس ميناءها ، ذهب خير الدين لتشجيع عمليات الجهاد البحري خاصة ضد الأسبان ، فازدادت بذلك شيئا فشيئا قوة العثمانيين البحرية في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، وأصبحت الجزائر هي عاصمة تلك الغزوات البحرية التي قادها خير الدين باقتدار لضرب النفوذ الاسباني والتجارة الاسبانية ، إلي جانب إنقاذ المسلمين المضطهدين في الأندلس. واستطاع خير الدين بعد ذلك مد منطقة نفوذه باسم الدولة العثمانية ، ورأت الأمارات العربية في دخولها تحت السيادة العثمانية سياجا يحميها من تعرضها للأطماع الصليبية الاسبانية ومن قهرها على اعتناق المسيحية ، لذلك أعلنت تبعيتها للدولة العثمانية ، وما لبث أن مد خير الدين النفوذ العثماني إلي بعض المدن الداخلية مثل قسنطينة.

وقد نجح خير الدين بربار وسا نجاحا بعيدا في إنشاء هيكل دولة قوية في الجزائر بفضل المساعدات العسكرية التي كان يتلقاها من السلطان سليمان القانوني ، واستطاع أن يوجه ضربات قوية للسواحل الاسبانية ، وكانت جهوده متميزة في حركة إنقاذ آلاف المسلمين الأندلسيين من الإفلات من قبضة الحكومة الاسبانية واللجوء إلي شمال إفريقيا. فعلى سبيل المثال قام عام ١٥٢٩م بتوجيه ست وثلاثين سفينة خلال سبع رحلات إلي السواحل الاسبانية لنقل سبعين ألف مسلم ، مما جعل مسلمي غرناطة وبلنسية وغيرها يستنجدون بخير الدين لإنقاذهم ، وغدا بذلك خير الدين الحارس الأمامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط(٦).

وكان أول نزاع له مع الأسطول الاسباني بعد تسلمه السلطة في الجزائر مع قائد الأسطول الشهير أندريا دوريا(٧) عام ١٥٢٩م ، والذي

هاجم جزيرة شرشال ولكنه فشل في هذا الهجوم . وعقب ذلك خرج بربروسا إلي البحر على رأس خمس وثلاثين سفينة وقصف موانئ اسبانيا ثم عاد غانما إلي الجزائر . اقتنص بربروسا الفرصة وحصل على معلومات هامة عن استعدادات الأسبان من الأسرى الذين قبض عليهم هذه المرة ، وزاد استعداداته لمواجهتهم ، وقد هاجم الأمير الجنوي جزيرة جربة بأسطوله ، إلا انه ووجه بدفاع شديد وانسحب فور وصول بربروسا[٨].

فتح تونس والنزاع مع الأسبان :

بعد توحيد خير الدين الجبهة الداخلية في الجزائر ، رأى أنه من الواجب عليه في ذلك الوقت إنهاء حكم الدولة الحفصية الضعيفة التي كانت على وشك الانهيار ، فقد كانت أعين شارلكان تتجه إليها مما يمثل أشد الخطر على النفوذ العثماني في شمال أفريقيا.

كان أبو عبد الله محمد الخامس قد تقبل المجاهدين البحريين ومنحهم مكانا في حلق الوادي ، وأجرى اتفاقا معهم ليظفر بنصيب من الغنائم الوافرة التي يتحصلون عليها عن طريق جهادهم ضد الصليبيين ، وقد استمر في حكم تونس إلي أن توفى عام ١٥٢٦م ، فخلفه ابنه أبو عبد الله الحسن والذي اشتهر باسم مولاي الحسن ، وقد عرف بسفاهته وكثرة سفكه للدماء إلي جانب إهماله لأحوال البلاد ، لذلك ضجر السكان من كثرة مظالمه ، وكان يتوجب على خير الدين استغلال تلك الفرصة المواتية ليمد سلطان الدولة العثمانية إلي تونس.

وفي نفس تلك الأثناء استدعى السلطان سليمان خير الدين إلي استانبول عام ١٥٣٣م ، ليعهد إليه بقيادة الأسطول العثماني والإشراف على تنظيمه وتطويره ، فكما سلف الذكر أن الجيش العثماني كان في البر

على قدر كبير من النجاح ، لذلك رأى السلطان سليمان أن يكون للدولة ذلك القدر من النجاح والهيبة في البحر ، خاصة بعد تولي أندريا دوريا قيادة الاساطيل الاسبانية ، فمن له أن يتصدى لهذا القبطان الماهر غير خير الدين بربروسا. هكذا كان على خير الدين أن يعلن منذ اللحظة الأولى تحديه لأندريا دوريا.

فبعد أن ترك مكانه في الجزائر لحسن أغا نائبا عنه ، تحرك خير الدين مع أسطوله متجها إلي استانبول مصطحبا معه عددا كبيرا من خيرة قادته ، وفي أثناء سيره هاجم سواحل سردينيا وصقلية وجنوة ، وأمام مضيق ميسينا التقى مصادفة بثمان عشرة قطعة بحرية فهاجمها واستولى عليها ، وبعد أن أسر من بها أحرقها أمام المدينة . علم خير الدين بتوجه أندريا دوريا إلي قورون بست وعشرين سفينة ، فكلف خير الدين خمسا وعشرين سفينة بملاحقته ، لكنهم لم يتمكنوا من اللحاق به.

التقى خير الدين مع الأسطول العثماني بقيادة القبطان أحمد باشا في نافارين ، فتوجها سويا إلي قلعة قورون ، وأنقذا المسلمين الموجودين بها ، ومن ثم ذهبا إلي مضيق الدردنيل وبعد استئذانهما من السلطان دخلا استانبول محاطين بالأفراح(٦).

منذ يوم دخول خير الدين استانبول عام ١٥٣٤م وتوليته قيادة الأسطول العثماني ، دخلت البحرية العثمانية عهدا جديدا من التنظيم والقوة ، فقد بدأ خير الدين بصناعة السفن بناء على رغبته الخاصة ، ونظمها ورتبها معتمدا على خبرته السابقة ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت القوة البحرية العثمانية بقيادة رؤساء البحر على قدم مساواة مع القوة البرية التي اعتمدت عليها الدولة العثمانية في معظم حروبها ، وأصبح

الأسطول العثماني مرهوب الجانب من الدول البحرية العظمى من أمثال اسبانيا والبرتغال.

وقد استطاع خير الدين منذ توليه قيادة الأسطول إعلام أندريا دوريا بصفة عملية أنه يفوقه قوة ومهارة وخبرة . ولم تقتصر نشاطات الأسطول العثماني منذ ذلك الوقت على البحر المتوسط ، بل تعدته إلى البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي إلى جانب الخليج العربي ، وبفضل هذا الأسطول القوى استطاعت الدولة العثمانية فرض سيطرتها على السواحل الجنوبية للجزيرة العربية وشرق أفريقيا ، إلى جانب المضايق الهامة مثل باب المندب الذي عن طريه أوقف العثمانيون السفن الأجنبية من دخول البحر الأحمر للمحافظة على خصوصية الأماكن المقدسة الحجازية لفترة طويلة من الزمن.

لقد كانت هناك الكثير من العوامل أملت على السلطان سليمان القانوني الاهتمام بمد النفوذ العثماني إلي تونس ، ومن أهم تلك العوامل الموقع الجغرافي في منتصف الساحل الأفريقي وتوسطها بين الجزائر وطرابلس ، وقربها من ايطاليا التي كانت أحد جناحي الإمبراطورية الرومانية المقدسة (وكان جناحها الآخر اسبانيا) ، هذا إلى جانب مجاورتها لجزيرة مالطة مقر فرسان القديس يوحنا الحلفاء الطبيعيين للإمبراطور شارل الخامس ، وأشد الطوائف المسيحية عداء للإسلام ، ثم الإمكانات الهائلة التي تتيحها موانئ تونس في التحكم في المواصلات البحرية في البحر المتوسط . هكذا تضافرت عدة عوامل على إضفاء أهمية عسكرية على تونس في هذا الصراع الحربي بين السلطان سليمان وبين الإمبراطور شارل الخامس[١٠].

ولم يضيع السلطان العثماني الوقت ويعطي الفرصة لشارل الخامس ليتوجه بأنظاره إلي تونس ، لذلك فقد أعطى أوامره لخير الدين فور تسلمه لقيادة الأسطول ليتوجه رأسا إلي تونس ويستولي عليها ، وان يستغل ظروفها السياسية المنهارة ونفور الناس من الحكم الحفصي لتثبيت أقدام العثمانيين بها.

لقد أدرك خير الدين منذ توليه مهمة قيادة الأسطول أن مهمة طرد الأسبان من الشمال الإفريقي قد ألقيت علي عاتقه ، بعد ما لمسه من تلاعب الأسر الحاكمة هناك وموالاتها للأسبان شراء لمصلحتها الخاصة ، هذا بالإضافة إلي أن الدولة العثمانية نفسها لن تكون سندا قويا له لانشغالها بحروبها في أوروبا ضد المجر بالإضافة إلي حرب روس التي ستستغل كل إمكانيات الدولة.

غير أن السلطان العثماني حاول مساندته ولو بالطرق الدبلوماسية وحتى لا تكون الدولة بمعزل عما يحدث في الشمال الأفريقي ، عمد السلطان سليمان إلي عقد اتفاق مع الفرنسيين بغية تخفيف الضغط عن خير الدين. لقد كانت ثقة السلطان في خير الدين هي الركيزة التي أطلقت يد خير الدين في كيفية استخدامه للأسطول العثماني بجانب استخدام سياسته الخاصة الرامية لإخضاع الشمال الأفريقي ، ومحاولة خلق بعد استراتيجي للدولة العثمانية في الجانب الغربي للبحر المتوسط.

وهكذا غادر خير الدين استانبول على رأس قواته التي تتكون من ثمانين سفينة وثمانية آلاف جندي عام ١٥٣٤م ، في نفس الوقت الذي كان السلطان سليمان يعبر فيه الأناضول متجها لغزو إيران. وقبل أن يتوجه خير الدين بأسطوله لفتح تونس توجه إلي السواحل الأوروبية فهاجمها ونهبها ، وقصد بذلك نشر الرعب في نفوس الأوروبيين تمهيدا للاستيلاء

على تونس ، وحتى يجبر الحكومات الأوروبية على توزيع قواتها لتأمين سواحلها بهدف التصدي لقوات خير الدين[١١].

وبعد ذلك توجه خير الدين على رأس قواته إلي تونس فاستولى عليها عام ١٥٣٤م ، وأعلن تبعيتها للدولة العثمانية وأنهى الحكم الحفصي بها[١٢] ، كما سقطت في يديه المدن الساحلية وتوغلت قواته جنوبا في الداخل وأعلنت القبائل ولاءها للدولة العثمانية ، ولكن السلطان الحفصي مولاي الحسن قد تمكن من الهرب وألقي القبض على أنصاره الذين رغبوا بالمقاومة ، وتوجه مولاي الحسن بعد ذلك إلى الأسبان طالبا عونهم[١٣].

كان لاستيلاء خير الدين على تونس أصداء واسعة في العالم المسيحي ، خصوصا عند الإمبراطور شارلكان الذي كان يدرك جيدا معنى امتداد الحكم العثماني إلي هذا الإقليم الهام الذي يشرف بشكل مباشر علي المواصلات بين حوضي البحر المتوسط ، إلي جانب قربه الشديد من أقاليم الدولة الرومانية من الناحية الشرقية ، هذا بالطبع غير تهديد النفوذ الاسباني في قواعده الباقية في الشمال الأفريقي ، وتشجيعا للموريسكيين على مواصلة الهجرة والاستقرار بتونس إلي جانب الجزائر والمغرب. وكانت كل هذه العوامل كفيلة بتوجيه جهود شارل الخامس إلي تونس وإرساله لحملة قوية لطرد العثمانيين وإعادة الحكم الحفصي الموالي له.

وتتبين مدى أهمية تلك الحملة بالنسبة للإمبراطور شارل الخامس من إصراره على قيادتها بنفسه حيث كانت الحملة الأولى له على أفريقيا لذلك فقد حرص على أن تكون قوتها تناسب أهميتها ومن على رأسها ، وقد عين أندريا دوريا والدوق دالب كمساعدين له . وقد ضمت هذه

الحملة قوات ألمانية وايطالية اضافة الي فرسان مالطة الي جانب القوات الاسبانية الأكثر عددا ، وقد تحركت الحملة من برشلونة عام ١٥٣٥م.

وبالرغم من ضخامة حملة شارلكان فقد قرر خير الدين التصدي لها بكل قوته ، لكن مع شدة القصف المستمر والمركز من قبل الأسبان لم تتمكن قوات الريس خير الدين من استخدام المدافع فاضطروا للانسحاب ، ودخلت القوات الاسبانية تونس وعلى رأسها الإمبراطور شارلكان حيث تقدم إليه سلطان تونس مولاي الحسن مع عدد كبير من أنصاره منحنيا أمام قدميه ، معلنا فروض الطاعة والولاء فقبله الإمبراطور وأحسن إليه[١٤].

وهكذا تمكن شارلكان من الاستيلاء على تونس بسبب التفوق العددي والخيانة العربية التي حمل لواءها مولاي الحسن الحفصي وأتباعه ، وأقامت على أثر ذلك البابوية في روما احتفالات كبرى احتفالا بوقوع تونس في يد شارل الخامس العاهل المسيحي ، وقد وافق مولاي الحسن على أن يحكم تونس باسم شارلكان وتحت حمايته ، كما تنازل عن ميناء حلق الوادي[١٥] وغيره من المدن ، هذا بعد أن قامت القوات الاسبانية خلال يومين بسلب ونهب المدينة وقتل أكثر من ثلاثين ألف مسلم ، وأسر أكثر من عشرة آلاف إلي جانب هدم المساجد والمدارس وإحراق الكتب والمخطوطات النادرة ، وأصبحت شوارع المدينة وأزقتها مليئة بالقتلى من الشيوخ والأطفال والنساء ، فغدت المدينة خالية من الأهالي[١٦].

ومنذ ذلك الحين غدت تونس لأكثر من نصف قرن في تنازع مستمر بين العثمانيين من جهة والحفصيين والأسبان من جهة أخرى ، ولكنها استقرت في النهاية في يد العثمانيين الذين استولوا عليها نهائيا عام ١٥٧٤م.

وكان على خير الدين أن يرد ضربة تونس بضربة مماثلة ، فقام بالهجوم على جزر البليار الاسبانية وعلى سواحلها الجنوبية ، فاجتاز مضيق جبل طارق وأطلق العنان لسفنه بالانقضاض على السفن الاسبانية والبرتغالية ، خاصة المحملة بالذهب والفضة(١٧) إلى جانب أخذه لأكثر من ستة آلاف أسير مسيحي عاد بهم إلى الجزائر.

ومنذ ذلك الوقت لم تتوقف أعمال خير الدين البحرية ، لكنه ركز جهوده كقائد أعلى للأسطول العثماني في الحوض الشرقي للبحر المتوسط تاركا الحوض الغربي لوالي الجزائر حسن أغا(١٨) الذي أبلى بلاء حسنا واستطاع أن يملأ الفراغ الذي تركه خير الدين في الجزائر بالإضافة إلى الجهاد البحري خاصة ضد شارلكان ، فاكتسبت الجزائر مهابة عظيمة في عهده ، حتى انه عام ١٥٣٩م ركب هو ورجاله على ظهر ثلاث عشرة سفينة واندفعوا إلى الساحل الاسباني الجنوبي وتوغلوا فيه وغنموا الكثير من الأسرى والسبايا ، وفي طريق رجوعه اعترضت طريقه عمارة اسبانية ، لكنه استطاع التغلب عليها ودحرها(١٩).

وهكذا وجد الإمبراطور شارل الخامس أن انتزاعه لتونس من يد العثمانيين لم يؤد إلى نتيجة جزرية ، بل ازداد الأمر سوءا بازدياد الغارات التي يقوم بها المجاهدون على السواحل الأوروبية ، فوجد أنه من الضروري التوجه إلى عمل عسكري حاسم من شأنه انتزاع شأفة العثمانيين من الشمال الأفريقي نهائيا ، وأن هذا العمل العسكري لابد أن يكون في الجزائر مركز الغارات البحرية ومأوى الهاربين من الأندلس ، وقاعدة السلطان سليمان القوية والحصينة تجاه السواحل الاسبانية ، خصوصا بعد الأنباء الحزينة التي وصلته من أوروبا اثر نجاح جيوش

السلطان سليمان في الاستيلاء على مدينة بون وتحويل أكبر كنائسها إلـى مسجد[٢٠].

أمر شارل الخامس على التوجه بأكبر أسطول قام على الإشراف عليه وإحضاره ، ويبدوا أنه من أكبر التجمعات البحرية المقاتلـة التـي ظهرت في القرن السادس عشر ، حيث كان البحارة والجيش خليطا مـن مختلف أصقاع الإمبراطورية الاسبانية ، وكان هدف الحملة هو الاستيلاء على الجزائر واجتثاث العثمانيين من البحر المتوسط ، فقد كان الأسـبان يعتقدون أنه لولا بروز العثمانيين بالمغرب لأمكنهم إنشاء مملكة مسيحية على السواحل المغربية[٢١].

وفي صيف ١٥٤١م قام شارلكان بتجهيز جيشه وأسطوله وأمـر بالتوجه إلي الجزائر، فبلغها في نفس العام ، وقد شارك في هذه الحملـة نبلاء اسبانيا وإيطاليا وألمانيا كجنود متطوعين إلي جانب فرسان مالطة ، وكان الأسطول يتكون من خمسمائة وست عشرة سفينة من السفن الحربية وناقلات الجند ، وعهد بقيادة هذا الأسطول إلي عدد مـن كبـار القـادة البحريين كان من بينهم أندريا دوريا ، وقد تمكنت تلك الحملة من النزول بسهولة إلي البر في جهة مجاورة لميناء الجزائر في يوم الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٤١م[٢٢].

ما أن تمت عمليات الإنزال بسلام حتى اكفهر الجـو ، وهطلـت الأمطار بغزارة ، وهبت ريح عاصف استمرت عدة أيام ، اقتلعت فيهـا خيام جنود الحملة وارتطمت سفنهم بعضها ببعض ، وأصـبح الأسـطول الاسباني مهددا بالغرق ، ولقد بدأ في الانسحاب هو والجـيش المتمركـز على الساحل ، وانتهز حسن باشا هذه الفرصة وانقض بهجـوم مفـاجئ وأعمل السيف فيهم قتلا وفتكا ، وانهزم الأسبان وبدأت القـوات البريـة

والبحرية في الانسحاب ، وانتهز الأهالي هذه الفرصة وانقضوا عليهم من كل حدب وصوب ، فأخذوا غنائم لا تحصى بالإضافة إلي الأسرى . هكذا مني الأسبان بهزيمة مروعة حتى أن الإمبراطور شارلكان شوهد لأول مرة وهو يبكي ، بل لانه قد انتزع تاجه من على رأسه وألقاه في البحر ، وبعد رجوعه إلي اسبانيا ترك عرشه واعتزل الدنيا وتستر في معابد الرهبان متأثرا بما حل به(٢٣).

كان من أهم العوامل التي ساعدت على إلحاق الهزيمة بالإمبراطور وحملته القوية ، هو التفاف الجزائريين حول حسن أغا باشا واهم من ذلك النجدات العسكرية التي بعث بها السلطان سليمان إلي حسن أغا والتي نظر إليها أهل الجزائر ومسلمو اسبانيا على السواء باعتبارها تعزيزا لشوكة المسلمين ، وكانت هذه الهزيمة هي أكبر هزيمة مني بها الإمبراطور شارلكان في حياته ، وقد شبه أهل الجزائر هذه الهزيمة بهزيمة أصحاب الفيل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم ، فقالوا في رسالة أرسلوها الي السلطان سليمان ، أن الله سبحانه وتعالى عاقب شارل الخامس وجنوده (بعقاب أصحاب الفيل ، وجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم ريحا عاصفا وموجا قاصفا ، فجعلهم بسواحل البحر ما بين أسير وقتيل ، ولا نجا منهم من الغرق إلا قليل)(٢٤).

وبذلك استطاع العثمانيون دحر الجيش الصليبي ، والانتقام مما فعلوه في تونس من سلب ونهب وتقتيل ، وأصيبت أوروبا والعالم المسيحي بخيبة أمل نتيجة لدمار الجيش والأسطول الاسباني ، وتكونت لديهم قناعة بأن الجزائر مدينة لا تقهر ، كما أن معنويات المسلمين ارتفعت بشكل كبير إلي جانب الغنائم العظيمة التي حصلوا عليها . وقد هزت هذه الهزيمة مركز الأسبان في وهران مما دعا حاكمها الكونت

الكونديت لأن يسارع طالبا نجدات عاجلة من اسبانيا ، لكن اسبانيا وحروبها في القارة الأوروبية لم تمكنها من نجدة قواتها ، مما مكن العثمانيون من تشديد الحصار على وهران وغيرها من مراكز الأسبان ، بل واستطاعوا عام ١٥٥٨م أن يوجهوا ضربة قاصمة للجيوش الاسبانية قرب مستغانم فأسروا ١٢ ألف أسير ، وأحاطوا بالبقية الباقية منهم ، وكان ممن قتل في المعركة الكونت الكونديت حاكم وهران نفسه ، الذي كان على رأس القوات الاسبانية الزاحفة صوب مستغانم[٢٥].

كف الأسبان عن مهاجمة الجزائر منذ هزيمتهم عام ١٥٤١م ، لكنهم نقلوا الصراع بينهم وبين القوى الإسلامية العثمانية إلى تونس ، فقد استطاع أندريا دوريا الاستيلاء على عدة مدن في إقليم تونس مثل صفاقص وسوسة ومنامستير ، مما أثار سخط السكان على بني حفص لتخاذلهم أمام القوى الصليبية . وفي هذه الأثناء ظهر قائد بحري عثماني هو دارغوث باشا[٢٦] ليملأ الفراغ السياسي والحربي في تونس على نحو ما فعل الأخوان عروج وخير الدين ، واستطاع دارغوث أن يتخذ من طرابلس التي أصبحت نيابة عثمانية قاعدة عسكرية من قواعد الجهاد الديني البحري في شمال أفريقيا[٢٧].

وقبل أن نتحدث عن إتمام فتح العثمانيين لتونس وما صاحبه من حوادث وصراعات بين القوى السياسية الكبرى في البحر المتوسط ، لابد لنا أولا أن نتطرق إلى فتح طرابلس الغرب وإخضاعها للنفوذ العثماني.

الفتح العثماني لطرابلس الغرب :

لم تكن طرابلس الغرب مطمع للقوى الصليبية في العصور الحديثة فحسب ، إنما كانت كذلك منذ العصور الوسطى ، حيث استولى عليها النورمان سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م وبقي الوجود النورماني ماثلا فيها

حتى قام عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين بطردهم من آخر معـــاقلهم بالشمال الأفريقي عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م[٢٨].

وحينما دب الوهن في جسم الدولة الموحدية منذ القـــرن الثالـــث عشر ، عادت القوى الصليبية لممارسة نشاطها ، فتـــارة توجـــه إليهـــا الحملات الصليبية ، وتارة أخرى يهاجمها القراصنة ، وتحاك المؤامرات ضدها تارة ثالثة. ولعل في ذكر حملة الجنـــويين علـــى طـــرابلس عـــام ٧٥٥/١٣٥٤م ما يدل على ذلك ، وازدادت ضراوة الهجوم الصليبي عليها في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، حينما حمل النصارى الأسبان لواء الحركة الصليبية ، وبدأوا يضربون سواحل المغرب الشـــمالية مـــن برقة الى طنجة[٢٩].

لقد كانت طرابلس الغرب إحدى موانئ أفريقيا الهامـــة ، وكـــان يصدر منها جزء لا يستهان به من منتجات قلب القارة الأفريقية[٣٠].

أما في مطلع القرن السادس عشر فقد كانـــت طـــرابلس منطقـــة إستراتيجية خطيرة بالنسبة لحركة التجارة مع داخل أفريقيا ، وهي المأوى الوحيد والمفضل للقوافل الصحراوية الوافدة مـــن الســـودان والمحملـــة بالتوابل والذهب وتجارة العبيد . كما أن طرابلس الغرب تعـــد – علـــى صعيد المواجهة البحرية – خطا ساحليا ذا أهمية قصوى لتـــأمين حريـــة التجارة والنقل في عرض البحر المتوسط ، كما أن واجهتها القريبة مـــن مالطة وايطاليا وحتى الجزر الشرقية ، قد أعطى لهذا الإشراف العسكري حيوية كبيرة[٣١].

ولقد كانت طرابلس الغرب منذ مستهل القرن السادس عشر تشهد أحوالا سياسية مضطربة ، فهي تارة تتبع الســـلطة المركزيـــة للســـلطان الحفصي في تونس ، وتارة أخرى منفصلة عنه ، لذلك طمع بها الأسبان

لأهميتها الإستراتيجية ، فعملوا على احتلالها عام ١٥٠٩م ، حيث اكتسحت المدينة من قبل الأسبان بعد حرب عنيفة قتل فيها معظم أهلها ، وألحقت إدارتها بصقلية التي كانت حينذاك تابعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة . وفي عام ١٥٣٠م تركها الأسبان لفرسان مالطة الذين استطاعوا بالاستناد إلي جزيرة مالطة وطرابلس إلحاق أشد الضرر بالمسلمين ومراكبهم ومواصلاتهم[٣٢].

لقد كان فرسان مالطة وهم فرسان القديس يوحنا متمركزين في بادئ الأمر في جزيرة رودس[٣٣] ، حيث كانوا يقومون بتهديد مباشر للتجارة الإسلامية وطرق التجارة ، كما كانوا يقومون بتهديد الطريق البحري للحجاج المسلمين ، لذلك فقد قرر السلطان محمد الفاتح فتح جزيرة رودس ، وضرب عليها الحصار ثلاثة أشهر لكنه لم يتمكن من افتتاحها ، لذلك حرص أيضا السلطان سليم الأول على فتح الجزيرة وطرد فرسان القديس يوحنا الذين يعيثون في الأرض فسادا ولكنه مات قبل إتمام مشروعه. ومن هنا طلب السلطان سليمان القانوني من قادته متابعة أحوال هذه الجزيرة وإعطاء معلومات وافية عنها . فوجد أن التعاون قائم بين رودس وجزر البندقية لمحاربة المسلمين وإيقاع الضرر بهم في كل وقت ، وأن أعمال السلب والقرصنة تنطلق في معظمها من جزيرة رودس ، وما يتبعها من جزر ، هكذا وجد أن هذه الجزيرة هي مصدر الخطر الأساسي الذي يهدد الطريق البحري الذي يربط عاصمة الدولة و موانيها في البحر المتوسط والبحر الأحمر ، هكذا قرر السلطان سليمان فتح هذه الجزيرة . فجهز حملة بقيادة القائد العثماني بيري باشا إضافة إلي مائتي ألف جندي عثماني تحت قيادة مصطفى باشا ، وفتحت الجزيرة بعد حرب ضروس وقتال عنيف عام ١٥٢٢م ، ومنح السلطان

سليمان فرسان القديس يوحنا حرية الانسحاب من الجزيرة ومنح الأمـــان والحماية لأهل الجزيرة[٣٤].

هكذا غادر فرسان القديس يوحنا الجزيرة بعد تسليمها للعثمانيين ، واتخذوا جزيرة مالطة[٣٥] قاعدة لهم ، حيث تنازل لهـــم الملـــك شـــارل الخامس عن الجزيرة في مقابل مساعدته في حروبه ضد المسلمين ، إلى جانب هجماتهم المستمرة ومزاولتهم القرصنة البحريـــة ضـــد المراكـــب الإسلامية العابرة للبحر المتوسط.

ولقد ازداد الأمر سوءا بعد استيلاء فرسان مالطة على طرابلس ، التي شكلت مع مالطة ركيزة كبيرة لحركة القرصنة البحرية المسيحية ضد المسلمين ، هكذا أدركت الدولة العثمانية خطورة ذلك الوضع وخطـــورة الأوضاع عامة في المغرب الإسلامي ، وحول هذا الأمر اهتمـــام قـــادة الدولة من قلب أوروبا إلى تقوية أسطولهم البحري وتعزيز نشاط البحارة العثمانيين ، وهذا ما تفسره الرؤية العثمانية الجديدة في فتح تونس على يد خير الدين سنة ١٥٣٤م ، ثم فيما بعد تعزيز نشاط دارغوث رايس وإحكام وجود مراد أغا بتاجوراء التي لا تبعد كثيرا عن مدينة طرابلس[٣٦].

يقترن ذكر طرابلس الغرب باسم كبير من أسماء البحرية العثمانية ألا وهو دارغوث رايس ، الذي لا يقل كفاءة ومهارة عـــن خيـــر الـــدين بارباروسا ، ولقد تشابهت حياته بحياة الريس خير الدين في كثيـــر مـــن الأوجه ، فقد عمل بالجهاد البحري وأســـر مراكـــب للنصـــارى ، وقـــام بالهجوم على الموانئ والسواحل الأوروبية ، هذا إلى جانب أنه وقع فـــي الأسر وخلص منه على يد خير الدين الذي عمل معه الكثير من الوقت.

وفي الواقع إن الريس دارغوث قد فكر في تأسيس إمارة بحريـــة تكون قاعدة له ، مثل إمارة آل برباروسا في الجزائر . بحث دارغـــوث

عن مكان مناسب في أفريقيا الشمالية غير الجزائر ، فوجد أن البلدان الساحلية الواقعة شرقي تونس مناسبة جدا وهي ليست بيد النصارى ، كما أنها لا تقع تحت حكم أمراء تونس ، وفي سنة ٩٣٩هـ/١٥٣٢م حضر الريس دارغوث أمام المهدية ، وهي واحدة من أقوى القلاع التونسية ، وكان سكانها يبغضون حكامهم المحتمين بالنصارى ، لذا فان الريس دارغوث احتل المدينة والقلعة دون مقاومة(٣٧) ، وقام بتشكيل إمارة بالسواحل التونسية وثبت قواعد نشاطه البحري من عام ١٥٣٢م إلى ١٥٤٩م.

ومنذ استيلاء الريس دارغوث على المهدية ذات الموقع الحصين بدأ في الاستيلاء على مدن السواحل التونسية المدينة بعد الأخرى ، هذا فضلا عن محاولاته لعرقلة المرور الأوروبي وضرب الموانئ الاسبانية وخاصة الايطالية ، وقد استند في ذلك إلي نوع من البواخر السريعة الحركة ، بالإضافة إلي خبرة طويلة بالبحر وبالسواحل الأوروبية. هذا ما جعل شارل الخامس يعده أكثر خطورة من خير الدين بربروسا ، وهو الموقف الذي جعل شارل الخامس يعمل على استرجاع المهدية من دارغوث(٣٨).

بعد نجاح شارل الخامس في استرداد تونس من يد خير الدين عام ١٥٣٤م ، كان على مولاي الحسن الحفصي- الذي حكم تونس نيابة عن الأسبان- تسليم بونة والمهدية إلي شارل الخامس عملا بمنطوق المعاهدة التي تمت بينهما ، وبما أن المهدية كانت في حوزة دارغوث فان مولاي الحسن لم يستطيع الوفاء بوعده ، لذلك عمل شارل الخامس على استعادة المهدية من يد دارغوث. وقد قام بالفعل أندريادوريا بحملة ساهم فيها فرسان مالطة واستطاعت هذه الحملة احتلال سوسة ثم المانستير، ثم

الاستيلاء على المهدية. إن سقوط المهديــة واستفحال تقـدم الأسـبان بالأراضي التونسية وضرب شوكة العثمانيين بالايالات المغربية زاد من اهتمام العثمانيين بهذه المنطقة ، ودفع السلطان سليمان إلي رد فعل سريع في توجيه الاسطول العثماني لاسترجاع المهدية ووضع حـدا لفرسـان القديس يوحنا بطرابلس الغرب[٣٩].

عاد الريس دارغوث إلي المياه العثمانية بعد أن فقد المهدية عـام ١٥٥٠م ، وعند عودته تلاقى مع الأسطول العثماني الذي كان تحت قيادة سنان باشا ، وتبادل الأسطولان التحية بإطلاق المدافع من سفن الطرفين . ولما شاهد سنان باشا ما عليه مراكب الريس دارغوث من تنظيم وسرعة في إطلاق المدافع ، فكر في ربط دارغـوث بخدمـة الدولـة العثمانيـة والاستفادة من قوته ، فرغبه في الذهاب إلي استانبول وخدمة السـلطان ، فقبل دارغوث وتوجه إلي استانبول مباشرة[٤٠].

قابل دارغوث السلطان سليمان القـانوني ، وأحـاط المسـئولين العثمانيين علما بطبيعة السياسة الاسبانية وأنه يخشى خطرهم القريب على كل من طرابلس الغرب والسلطان الحفصي ، فضلا عن سـلامة تنقـل الأسطول العثماني في هذه المنطقة . وعلى ضوء هذه التقارير تقـررت الحملة العثمانية على طرابلس الغرب ، وتقرر الاستفادة من خبرة الريس دارغوث بتلك المراحل.

كان الأسطول العثماني المتجه إلي طرابلس مكـون مـن ١٢٠ سفينة شراعية عثمانية أسندت قيادتها لسنان باشا القائد العـام للأسـطول العثماني ، وكان يسانده في ذلك الريس دارغوث بسفنه الخاصـة التـي بلغت حسب المصادر خمسين سفينة ، كذلك صالح بـأي حـاكم رودس. وبدأت المعركة بين الجيش العثماني والحامية المالطية في طرابلس عـام

١٥٥١م ، حيث كانت الحامية معزولة تماما عن الاستنجاد الخارجي ، مما جعلها بعد مدة تطالب بالاستسلام ، فسمح لها بالخروج إلى مالطة وصقلية(٤١).

هكذا وقعت طرابلس الغرب في يد العثمانيين ، والذي أدي إلى تصاعد الصراع الإسلامي المسيحي في البحر المتوسط عامة وفي الشمال الأفريقي خاصة.

ولقد استفاد العثمانيون كثيرا من وقوع طرابلس في أيديهم ، فقد تحولت تجارة أفريقيا – التي تركزت في تاجوراء – إليها ، حيث ازدادت حركة التبادل التجاري المتمثلة في التوابل والعبيد والذهب بين طرابلس وداخل أفريقيا. كما أن سقوط طرابلس في يد العثمانيين قد نبه أوروبا المسيحية إلي الخطر الكبير الذي تمثله هذه القوة الصاعدة التي تسعى إلي مزيد من الانتصارات العثمانية على الساحل الأفريقي والذي من شأنه تهديد للدول الأوروبية ، فضلا عن تهديد آخر المعاقل الاسبانية في حلق الوادي ووهران . وقد عهد سنان باشا بإدارة طرابلس إلي مراد أغا حاكم تاجوراء ، لكن لن تظهر طرابلس الغرب ولن تلعب دورها السياسي والعسكري إلا في عهد إدارة الريس دارغوث ، الذي تولى إمارة طرابلس عام ١٥٥٨م بفرمان سلطاني.

بعد تولي دارغوث باشا إمارة طرابلس ، بدأ في العمل على السيطرة التامة على الإمارة ، وإخضاعها بشكل كامل للإدارة العثمانية بواسطة عقد تحالفات محلية ، إلى جانب اهتمامه بمداخل البلاد وصحرائها ليس فقط بالسواحل ، كما ركز على تقوية التحصينات الدفاعية بالبلاد وجلب المزيد من الانكشارية لمضاعفة قوة الحامية.

بإخضاع طرابلس الغرب بقيت تونس وخاصة الأجزاء الداخلية تقف حاجزا في سبيل توحيد إمارات الشمال الأفريقي ، وقد شغل وضع الوسط والجنوب التونسي دراغوث باشا ، وأراد العمل لإخضاع المنطقة وضمها للنفوذ العثماني ، وهكذا بدأ التخطيط مع أمير الجزائر حسن باشا بن خير الدين لضرب قلعة حلق الوادي وتونس . ومن المعلوم أن منطقة القيروان كانت تخضع للشابيين والمهدية للأسبان ، وجربة للشيخ سليمان وقفصة لأتباع الشابية ، هكذا رأى دارغوث باشا أن الوقت مناسبا للقضاء على هذه التجزئة الإدارية وضرب النفوذ الاسباني بالبلاد .

بدأ دارغوث باشا فعلا تنفيذ مخططه بإخضاع تونس والقضاء على الزعامات المحلية ، فزحف على قفصة ودخلها عام ١٥٥٦م ، حيث استقبله الأهالي كمحرر لها ثم توجه إلي جربة فاستولى عليها وترك قيادة القلعة للقائد العثماني قلج علي[٤٢] وبجربة أقام دارغوث البرج الكبير للدفاع عن الجزيرة ، ثم انطلاقا من هذين الموقعين سهل على دارغوث دخول صفاقص.

أما عن القيروان فقد استطاع الشابيون اتخاذها قاعدة لدولتهم منذ عام ١٥٣٢م ، ثم ان مكانتها الدينية جعلتها محط الطرق الصوفية والدعوات الدينية الصوفية ، وهذا ما يفسر نجاح الشابيين نجاحا مطلقا وقدرتهم على مجابهة الحفصيين سنوات عديدة ، لذلك سعى دارغوث باشا لخلق حزام حول القيروان ، مداره المهدية التي جلاها الأسبان وسوسة وقفصة وصفاقص ، وفي النهاية استطاع دارغوث باشا تصفية الشابيين واسقاط دولتهم في القيروان ، ودخل دارغوث القيروان عام ١٥٥٧م واستقبله أهلها بالترحاب ، واستطاع دارغوث باشا بعد ذلك توطيد نشاطه في كامل الجنوب التونسي ، وتقوية الحزام البري حول طرابلس وعلى

للسواحل التونسية ، وجعل تحركه للبحري في اتجاه السواحل الصقلية أكثر نجاحا[٤٣].

سيطر العثمانيون سيطرة تامة على شرقي البحر المتوسط منذ مطلع النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ثم انطلاقا من ظهور دارغوث باشا بدأوا في الظهور قرب السواحل الغربية حيث كانوا يقومون بزيارات دورية ، الغرض منها تدعيم نشاط المغاربة والرفع من معنوياتهم والدفاع عن سلامة الأراضي العثمانية ، بالإضافة إلي أن في عهد دارغوث استطاع العثمانيون ضرب المصالح التجارية الاسبانية بشكل أكبر فضلا عن زيادة عدد الغارات على السواحل الأوروبية.

كل هذه العوامل حتمت على فيليب الثاني ملك اسبانيا الجديد ، السعي إلي تصفية الخلافات السياسية مع أعداء اسبانيا التقليديين خاصة فرنسا ، وتكتيل جهودهم للوقوف بنجاح هذه المرة ضد خطر تزايد التأثير العثماني في المنطقة ، وضرب (القراصنة) وتقويض هياكلهم العسكرية والإدارية.

وبالفعل سيمكن صلح (كاتو- كامبرسيس) الذي عقد عام ١٥٥٩م من تحقيق هذه الإغراض ، فقد سوى الخلاف بين اسبانيا وفرنسا وأعطى أوروبا أول فرصة للتخطيط لعمل جماعي منسق ، وقد تحالف إلي جانب اسبانيا وفرنسا البندقية والحكومات الايطالية الجنوبية والبابا وفرسان مالطة ، للقيام بهجوم جماعي ضد من اعتبر الخطر الرئيسي على سلامة الإمبراطورية الاسبانية ، ألا وهو (الريس دارغوث)[٤٤].

هكذا عمل فيليب الثاني على التخطيط لحملة على طرابلس للتخلص من دارغوث باشا ولإضعاف النفوذ العثماني بقدر الإمكان ، وبالفعل أمر الملك فيليب نائب صقلية بالقيام بحملة برئاسته ضد طرابلس

، وقد علمت الدولة العثمانية بتلك الحملة وبتجهيزاتها العسكرية ، لكن للدولة العثمانية في تلك الأثناء عام ١٥٥٩م كانت في وضع دقيق جدا ، فقد قام البرتغاليون بالسيطرة على خليج البصرة وبعض أجزاء البحر الأحمر ، وتشكلت في تلك المياه أهم تحركاتهم البحرية مهددة للسواحل العثمانية . كذلك كان الخطر الروسي يتحرك في اتجاه البحر الأسود وبحر أوزون ، كذلك وجود مجموعات نشطة من القراصنة الأوروبيين ببحر الأدرياتك وبحر ايجه لخلخلة الأمن بفضل ما تقوم به من اعتداءات على السواحل العثمانية . كل هذه العوامل كانت تؤثر في سياسة الدولة العثمانية وتوجيهها نحو توزيع اهتماماتها تجاه أهم المشاكل التي تتعرض لها الإمبراطورية[٤٥].

على الرغم من كل هذا تهيأ الباب العالي لتلك الأحداث التي تجري غربي المتوسط ، خاصة بعد ما أحيط علما بتفاصيل الحملة الاسبانية على طرابلس.

لقد كلف بيالي باشا قائد الأسطول العثماني بالتوجه نحو المياه الطرابلسية ، الي جانب إعطاء الأوامر لعدد من الحكام بالالتحاق ببيالي باشا وإنقاذ طرابلس ودارغوث باشا من تلك الحملة . أما عن الأسطول الاسباني فقد مر بمالطة لزيادة التجهيزات والتموينات ، ثم اتجه إلي طرابلس عام ١٥٦٠م ، لكنه لم يقم بأية نشاطات معادية نظرا لرداءة الطقس ، واضطر في النهاية إلي التحول إلي جربة فاستولى عليها بسهولة.

وفي هذه الأثناء وصل إلي علم قادة الحملة الأوروبية خبر وصول الأسطول العثماني ، ويؤكد برودال أن الأسطول قطع المسافة من استانبول والسواحل الليبية خلال عشرين يوما ، وهذه المدة قصيرة جدا

وغير مألوفة تماما. وقد توجه بيالي باشا رأسا إلي جربة ، وكان يعزز قيادته خبرة قلج علي باشا فضلا عن دارغوث ، وقد باغت الاسطول المسيحي في الجزيرة ودارت بعض المعارك الحربية التي أدت في النهاية إلي انتكاسة الأسطول الأوروبي ، الذي خسر الكثير من أفراده وقطعه البحرية ووقع الباقي في الأسر ، وقد شكلت رؤوس الضحايا ما أطلق عليه تاريخيا (برج الرؤوس) ، الذي بقى رمزا حتى التدخل الفرنسي في الجزائر في القرن التاسع عشر ، حيث أجبرت فرنسا باي تونس على أثر معاهدة تنص أحد بنودها السرية على تدمير برج الرؤوس عام ١٨٣٢م[٤٦].

أدت خسارة الأساطيل الأوروبية أمام الأسطول العثماني في حملة جربة عام ١٥٦٠م إلي العديد من النتائج الهامة التي تمثلت في تأكيد ربط الولايات المغربية بالمركز القادر على مجابهة الأخطار الخارجية التي تمس أبعد الولايات الخاضعة له.

ولقد أدى انتصار جربة إلى انضواء جميع الأراضي الطرابلسية إلي جانب الجنوب والساحل التونسي تحت لواء دارغوث باشا ، والى ازدياد قوته البحرية هو ووالي الجزائر حسن باشا ، مما أدى الي السيطرة ليس فقط على شرق وغرب البحر المتوسط بل وأيضا على مركزه ، هذا إلي جانب تهديد آخر المعاقل الاسبانية في الشمال الأفريقي والتي تمثلت في حلق الوادي في تونس ، ووهران في الجزائر. لقد كانت سنة ١٥٦٠م قمة التفوق للأسطول العثماني على صعيد السيطرة والانتصارات البحرية.

حصار مالطة :

لقد كان فرسان القديس يوحنا من ألد أعداء المسلمين ، فقد وهبوا أنفسهم لقتال المسلمين والتضييق عليهم بشتى الوسائل الممكنة ، كما فعلت معظم الجماعات الدينية الصليبية منذ انطلاق الحملات الصليبية الأولى على المشرق.

لذلك كان تمركز فرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس جعلها قلعة حصينة يلجأ إليها اللصوص وقطاع الطرق ، وكل من له مصلحة في مهاجمة المسلمين ، لذلك اهتم السلاطين العثمانيون منذ عهد السلطان محمد الفاتح في الاستيلاء على هذه الجزيرة والتخلص من شرها ، وكما سبق القول لم يستطع فتحها سوى السلطان سليمان القانوني عام ١٥٢٢م ، لكنه منح الأمان لفرسان القديس يوحنا ولم يمسهم بسوء وأعطاهم حرية الانسحاب ، وكان هذا من الأخطاء التي أدت بعد ذلك إلي تمركزهم من جديد في جزيرة مالطة بعد أن أهداهم اياها الإمبراطور شارل الخامس علي أن يكونوا حلفاءه في حربه ضد المسلمين خاصة في الشمال الأفريقي.

وبعد أن شعر المسلمون في شرق البحر المتوسط بالأمان بعد استيلاء العثمانيون علي رودس ، بدأ فرسان يوحنا الخروج عليهم مرة أخرى من جزيرة مالطة ، لكنهم في هذه المرة أكثر تحصينا وأقوى عتادا إلي جانب أنهم أصبحوا حلفاء للإمبراطور شارلكان ، الذي اتخذهم أداة من ضمن أدواته لشل حركة الملاحة الإسلامية بين حوضي البحر المتوسط بعد أن تمركزوا في مالطة ذات الموقع الاستراتيجي ، فضلا عن وقوعها بالقرب من الساحل الأفريقي ودعمها إلي آخر المعاقل الاسبانية في حلق الوادي ووهران والمرسى الكبير.

وأمام كل هذه المتغيرات جمع السلطان سليمان مجلس الشـورى في استانبول لأخذ رأيهم في التهديدات التي تتعرض لها الدولة ، فأشـار عليه المجلس بفتح جزيرة مالطة أولا وقبل كل شئ ، لأن فرسان القديس يوحنا الذين تمركزوا فيها هم أساس كل الاضطرابات[٤٧].

وكان دارغوث باشا قد أدرك جيدا حساسية موقع جزيرة مالطـة وخطرها على الملاحة الإسلامية وسلامة الولايات العثمانية في الشـمال الأفريقي ، لكنه مع هذا قد وقف موقفا معارضا هو والقائد قلج علي باشا اللذان ألحا على توجيه الحملة إلي قلعة حلق الوادي ووهران ، باعتبارهما امتداد للرقعة العثمانية الإسلامية ولأن خطرهما أشد تأثيرا ، هـذا خلافـا لمالطة التي تعتبر أحد القلاع المحصنة المسيحية ، والبعيدة عن الأراضي العثمانية. مع هذا فان الرؤية العامة للإستراتيجية العسـكرية والبحريـة العثمانية حولت اهتمامها الي مالطة بادئ الأمر[٤٨].

هكذا كلف السلطان سليمان أمراء طـرابلس الغـرب والجزائـر بمحاصرة مالطة ، وقد لبى هؤلاء الدعوة وأعدوا ما لديهم من قوة . وفي عام ١٥٦٥م وصل الصدر الأعظم مصطفى باشا قائدا للجيش وبيالي باشا آمرا على الأسطول ، واتجه الاثنين إلي مالطة ثم لحق بهم أمراء الشمال الأفريقي[٤٩] دارغوث باشا وحسن باشا والي الجزائر وقلج علي باشا من الإسكندرية ، وعلى الفور باشروا بحصارها .

لقد كانت المقاومة المالطية مدهشة ورائعة ، لقد تصدوا بكل بسالة وعنف إلي الهجمات العثمانية الموزعة ، لم يفسحوا المجـال للعثمـانيين بالاستيلاء علي أهم حصونهم . ولقد استمر الحصار العثماني أكثر مـن أربعة أشهر ، استنفذ فيها الجيش كل ذخيرته الحربية ومعداته وثوريته ، وكان استهلاك كل هذا الوقت في الحصار ضد إسـتراتيجية الأسـطول

العثماني التي تقضي دوما تبني أسلوب المفاجأة وسرعة التحرك وإنهاء المعارك. ولقد حتم كل هذا عدم نجاح العثمانيين في الاستيلاء على قلاع الجزيرة ؛ هذا فضلا عن إصابة دارغوث باشا بشظية في رأسه أردته قتيلا ، في نفس اليوم الذى نجح فيه العثمانيون في اقتحام حصن (سان المو) والاستيلاء عليه مع هذا فان الوضع لم يتغير لصالح العثمانيين الذين فقدوا أحد القادة اللامعين ، وأحد الشخصيات البارزة للقرن السادس عشر على الإطلاق وهو دارغوث باشا[٥٠].

وكان لفشل العثمانيين في الاستيلاء على جزيرة مالطة عدة نتائج أهمها ، بداية الاتجاه الأوروبي بتكتيل القوى المسيحية للعمل المشترك للقضاء على العثمانيين ، وهذا ما سوف يؤدي إلي الحلف المقدس الذي تزعمه البابا. وقد كان انتصار فرسان القديس يوحنا دافعا لهم على استرجاع طرابلس الغرب التي عهد بولايتها الي قلج على باشا بعد استشهاد الريس دارغوث. وقد أدى هذا الانتصار أيضا إلي تعزيز معنويات الأسبان وعملهم على زيادة تحصينات قلاعهم في الشمال الأفريقي وزيادة حركتها البحرية وتركيزها على البحر المتوسط[٥١].

ولن يكون انتصار مالطة منفصلا عن الانتصارات الصليبية التي تبعته على العثمانيين مثل انتصار معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م ، وسيكون له أيضا تأثير قوى على زيادة التحرك العثماني في مياه المتوسط خاصة الغربية لتدارك النتائج السلبية لهذه المعركة على الصعيد المتوسطي والشمال أفريقي.

ثورة الموريسكيين ومعركة ليبانتو البحرية :

بعد استشهاد دارغوث باشا في حصار مالطة عام ١٥٦٥م ، تولى مكانه في إمارة طرابلس القائد قلج على باشا الذي ما لبث أن صدر

فرمانا سلطانيا عام ١٥٦٨م بترقيته ونقله إلي إمارة الجزائر[٥٢] ، ولقد أثبت قلج علي باشا أنه كان من أعظم من تولوا إمارة الجزائر وجاهد في الشمال الأفريقي.

وتصر المراجع الأوروبية على أن قلج علي كان مسيحيا في بداية حياته ، كما أصرت على جعل معظم أبطال الجهاد من المسيحيين ، بينما تقرر المراجع التركية أنه كان عثمانيا إسلامي المولد ، ولم يكن مسيحيا قط[٥٣].

كان من أعظم الأهداف التي يرمي إليها قلج علي باشا ، هو إعادة الحكم الإسلامي إلي الأندلس ، بالإضافة إلي إنهاء الحكم الاسباني والموالين له في الشمال الإفريقي ، خاصة في تونس التي تفصل إقليمي طرابلس والجزائر عن بعضهما البعض . وقد رمى قلج علي لإعادة الحكم الإسلامي إلي الأندلس أولا ، وهذا مما سيؤدي تلقائيا إلي انكماش الحكم الاسباني وسهولة القضاء عليه في الشمال الإفريقي.

وفي ذلك الوقت عانى المسلمون في الأندلس من أساليب الضغط والتصفية ، التي مارسها ضدهم الأسبان لعدة أسباب أهمها ، أن المجتمع الموريسكي المسلم يشكل وحدة اجتماعية متماسكة ، كانت مسيطرة تماما على الاقتصاد بفضل نشاطها وذكائها وخبرتها ، وهذا ما أثار عليها الطبقات الصناعية والمالية الجديدة ، يضاف إلي هذا العامل الديني الحضاري الذي عمق الخلافات وجعل التعايش بين الفريقين مستحيلا.

وعلى أثر هذا ازدادت الإجراءات التعسفية ضد المسلمين في الأندلس منذ أوائل القرن السادس عشر ، خاصة لكل ما يتصل بالإجراءات التجريدية الكاملة عن الهوية والقومية والدين. وعلى ضوء

ذلك استحال على المورسكيين السكوت ، وهذا ما يبرره انتفاضاتهم الإقليمية المتكررة ، واستغاثاتهم العديدة الموجهة لحكام المسلمين(٥٤).

وقامت في هذه المرة الثورة المورسكية عام ١٥٦٨م ، خاصة بعد ما وجدوه من مساندة ومؤازرة من قلج علي باشا ، الذي عمل كل ما يستطيع لمساعدتهم ، فقد خصص لهم سفن تنقل لهم حاجتهم من السلاح ومدهم ببعض القادة ، وطلب من استانبول وباسترحام شديد مساعدة الأندلسيين ، وأيد الرسائل التي أرسلوها إلى السلطان العثماني. على أثر هذا صدر أمرين من الديوان الهمايوني بتاريخ ٩٧٧هـ/١٥٦٩م يطلب من قلج علي باشا تقديم السلاح وإرسال الجنود لأهل الأندلس بقدر المستطاع ذلك لأن الديوان الهمايوني قد قرر في ذلك الوقت مهاجمة جزيرة قبرص لما تشكله من خطر على المراكب الإسلامية في شرقي البحر المتوسط.

طلب قلج باشا من الأندلسيين توحيد جهودهم والعمل يدا واحدة ضد الأسبان ، وبغية تشتيت جهود الأسبان وإرباك قوتهم ، قرر مهاجمة وهران ثم من بعدها يتحرك إلى السواحل الاسبانية ، وبالفعل أرسل جيشا يتألف من أربعة آلاف جندي مسلحين بالبنادق وستين ألف جندي محلي مع أعداداً كبيرة من المدفعية والبارود ، كما أمر أربعين قادرغة بالرسو أمام السواحل الاسبانية بالقرب من المرية وكلفها بحماية الثوار ومساعدتهم. لكن أحد رؤساء الثوار وقع بخطأ أدى إلى كشف أماكن الأسلحة قبل إعلان الثورة بيوم واحد ، وتمكن الأسبان على أثر ذلك من كشف مخازن الأسلحة الواحد بعد الآخر ، كما ألقوا القبض على بعض الثوار مما أدى الى فشل الثورة(٥٥).

سنة وكانت التصفية هذه المرة رهيبة ، حيث انتقم الأسبان من الأقليات الإسلامية أبشع انتقام ومثلوا بهم ولاحقوهم في كل مكان. وقد اجتاحت الجيوش الاسبانية منطقة الثائرين وأحرقت كل شيء ، للقرى والديار والبشر والمحاصيل ، ولم يبقى أي شئ ، فقد استمرت الملاحقة العسكرية حتى عام ١٥٧٠م ، وقد أدى ذلك إلي التجاء آلاف الموريسكيين إلى الجزائر والمغرب وباقي أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، وقد نشطت نتيجة لذلك حركة التصدي للأسبان حيث ساعد الموريسكيون القيادات العثمانية بفضل معرفتهم اللغة القشتالية وأماكن الطرق البحرية ، لهذا فان سياسة فيليب الثاني ملك اسبانيا أصبحت على اهتمام كبير بالساحل المغربي. هذا إلي جانب أن الثورة الموريسكية قد أعطت بعدا جديدا لتحرك الأسبان فكان عليهم القيام بنشاطات جديدة ضد العثمانيين لإنهاء نفوذهم نهائيا ، وكانت كل هذه الأحداث وراء تزعم اسبانيا والبابا الحلف المقدس الذي سيؤدي إلي هزيمة العثمانيين هزيمة كبيرة ومؤثرة في معركة ليبانتو عام ١٥٧١م.

ويعد المؤرخون معركة ليبانتو عام ١٥٧١م من أهم الأحداث خلال القرن السادس عشر على الاطلاق[٥٦] ، فقد ترتب عليها الكثير بالنسبة للنزاعات السياسية والعسكرية في البحر المتوسط شرقه وغربه ، ولم تكن معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م حدثا سياسيا طارئا على الموقف الدولي ، وإنما كان حدثا تراكميا بسبب الأحداث المتتابعة والنزاعات المستمرة بين العثمانيين من جهة والدول الأوروبية من جهة أخرى.

ولقد أدت هذه النزاعات المستمرة بين الفريقين ، إلي تكوين تكتل صليبي اشتمل حتى على فرنسا التي كانت لها صلات قوية بالإمبراطورية

العثمانية على الصعيد التجاري والعسكري بل وعلى الصعيد الدبلوماسي خلال القرن السادس عشر. ولكن الحدث الأبرز الذي أدى إلي ذلك التحالف الصليبي الذي أعده البابا واشتركت فيه معظم الدول الصليبية، كان استيلاء العثمانيين على جزيرة قبرص التابعة حينئذ لجمهورية البندقية.

لقد كانت سياسة الدولة العثمانية في ذلك الوقت تهدف إلي إتمام السيطرة على الطرق الملاحية في البحر المتوسط وأحكام السيطرة على شرقي هذا البحر مما يؤمن حرية التجارة الإسلامية وسلامتها إلي جانب تأمين طريق الحج الرئيسي بشكل كامل، وبالطبع لن يتسنى لهم السيطرة على هذا الجزء الاستراتيجي الهام سوى بإتمام السيطرة على الجزر الهامة ذات الموقع المتوسط بين استانبول العاصمة العثمانية وبين باقي سواحل البحر المتوسط الشرقية والجنوبية حيث أهم الموانئ العثمانية في الشام ومصر، هذا إلي جانب الحد من نشاط سفن بحارة جمهورية البندقية وقراصنتها الذين انتهكوا أكثر من مرة حدود الدولة العثمانية[٥٧].

وقد أرسل الباب العالي عام ١٥٧٠م مبعوثا إلي البندقية، طالبا ترضية لكل الانتهاكات الترابية بتسليم قبرص إلي الباب العالي، على أن يكون ذلك ثمن السلم الذي كانت البندقية تطالب بعقده مع الباب العالي، إلا أن مجلس الشيوخ البندقي رفض هذا الإنذار، وهذا ما أدى على الفور إلي توتر عام في العلاقات العثمانية – البندقية لتشعل فيما بعد جبهة الحلف المقدس الأوروبية ضد العثمانيين. وقد سارع العثمانيون بإنزال جيوشهم في الجزيرة والاستيلاء على نيقوسيا وكل تراب الجزيرة ماعدا قلعة فماقوستا، ولم تلق قواتهم على العموم أي مقاومة تذكر، أما البنادقة

فقد سلموا في الحال كل سفنهم وقاموا بهجوم سياسي لإثـارة المسـيحية المهددة(٥٨).

وبعد استيلاء العثمانيين على قبرص عام ١٥٧٠م ، نقل إليها عدد كبير من أتراك الأناضول الذين لا يزال أحفادهم مقيمين في الجزيرة حتى الآن. ورغم ترحيب القبارصة الأرثوذكس بالحكم العثماني الذي أنقـذهم من الاضطهاد الكاثوليكي الذي مارسته البندقيـة لعـدة قـرون ، إلا أن احتلال العثمانيين للجزيرة أثار الدول الكاثوليكية التي أعدت حملة صليبية كان الهدف منها ليس فقط استرجاع قبرص بل استعادة كـل الأراضـي المسيحية التي سبق للعثمانيين الاستيلاء عليها(٥٩).

أما عن راعي و منشئ هذا الحلف المقدس فهو البابا بي الخامس الذي كان يؤمن أن المسيحية لها عدوان اثنان ، أحدهما : المـروق عـن الدين وثانيهما : خطر العثمانيين المسـلمين . وكـان يـرى أن الـدول الأوروبية منفردة لا يمكنها البتة القيام بـأي حركـة موفقـة لمواجهـة العثمانيين إلا أنهم باتحادهم يستطيعون ذلك بسهولة ، وهكذا فقد وفق هذا البابا في خلال أسابيع أن يجعل جميع الأطراف تتفق على مبادئ واضحة وقاعدة مشتركة للعمل الأوروبي ضد العثمانيين ، وكان أهـم القـرارات التي اتخذت هو تعيين دون جوان دتريش أخي الملك الاسـباني الغيـر الشرعي كقائدا عاما للأسطول المسيحي ، خاصة بعد نجاحه في تصـفية الثورة المورسكية عام ١٥٦٨م(٦٠).

ولقد اتفق المؤرخون على أن الباب العالي كان على علم جيد بكل خلفية هذا التحالف منذ البداية ، وبفضل شبكة جاسوسية واعيـة ، كـان الصدر الأعظم صوقللي باشا قد أدرك نوعية المفاوضات بين الأطراف. وقد سعى الباب العالي لكن متأخرا إلى محاولة إبرام الصلح مع البندقية ،

وأن يستجلب فرنسا إليه في محاولة منه لتفتيت الحلف المقدس من الداخل غير أنه لم يوفق في ذلك وكان عليه أن يجابه أكبر تجمع بحري مسيحي في شرق البحر الأبيض المتوسط[٦١].

وهكذا بدأ الباب العالي في تجميع الأسطول العثماني الذي قال عنه المؤرخون أنه كان يتراوح ما بين ١٨٠ ، ٢٠٠ سفينة ، وقد انطلق هذا الأسطول من ميناء استانبول عام ١٥٧١م حيث بدأ يجوب السواحل الشرقية ، واستمر الأمر كذلك عدة شهور استنفذ فيها الجيش كل طاقته . وقد تحرك الأسطول الأوروبي البالغ حوالي ٢٠٨ سفينة من ميناء ميسينا بإيطاليا متأخرا ، وقد تحول الأسطول الأوروبي نحو خليج ليبانتو بقيادة دون جوان ليفاجئ الأسطول العثماني فيه ، وكانت خطة الأوروبيين هي ضرب الحصار البحري على العثمانيين داخل الخليج وتقسيم الأسطول إلي ثلاثة جهات كما فعل العثمانيون الذين عهدوا لقلج على باشا بقيادة الجناح الأيسر لأهميته الإستراتيجية ، مع ذلك فقد تمكن الجانب الأوروبي من إلحاق أكبر هزيمة بحرية بالعثمانيين على الإطلاق في عرض البحر المتوسط ، ولم ينج من الوحدات العثمانية كلها إلا الثلاثون سفينة التي عهدت لقلج على باشا[٦٢].

كانت لهذه الهزيمة القاسية التي منى بها العثمانيون في البحر المتوسط العديد من النتائج على صعيد السياسة الدولية خاصة على الجانب الأوروبي الذي عد هذا الانتصار انتصارا كبيرا للمسيحية ، واعتبره انطلاقة جديدة للصليبية الأوروبية في معاودة استرجاع الأراضي المسلوبة وإنهاء النفوذ العثماني في البحر المتوسط.

ولقد أدى نجاح الحلف المقدس في حربه ضد العثمانيين إلي جذب الأنظار والاهتمام الأوروبي عامة ، واهتمام فيليب الثاني الملك الاسباني

خاصة ، والذي رأى أن الظروف سانحة لشن حـرب صـليبية واسـعة النطاق تشمل أهم المراكز والقلاع والمدن الساحلية في الشمال الأفريقي ، وبالفعل فإن أعادة احتلال تونس سيكون أول رد فعل عسكري واضح قام به الأسبان خصوصا والأوروبيون عموما على البلاد التونسية . ولقد كان رأي المسئولين الأسبان منقسما بين احتلال الجزائر وإعادة احتلال تونس ولقد وقع الاختيار على تونس لسهولتها ، إلى جانب أن السلطان الحفصي كان يطالب الأسبان مرارا بالقيام بحركـة عسـكرية لطـرد العثمـانيين واسترجاع تونس.

وفي عام ١٥٧٣م تحرك دون جوان متجها نحو حلق الوادي حيث تمكن من دخول البلاد دون مقاومة تذكر ، ولقد أباح دون جوان لنفسـه البلاد ، واستولى الجيش على الدور ، وعبث حتـى بمحتويـات جـامع الزيتونة ، وبعد ذلك غادر البلاد متجها إلى ايطاليا بعد أن ترك بها حامية ضخمة من ثمانية آلاف رجل ، وبعد أن عين محمدا الحفصي أميرا على البلاد ، والذي تعهد بتقديم المساعدة لمحاربة العثمانيين الـذين مـازالوا يسيطرون على البلاد من الداخل ، حيث لم تتجاوز السـيطرة الاسـبانية ضواحي تونس والمنطقة الشمالية فقط(١٣).

أصبح الوضع العثماني صعبا في المنطقة ، فقد تحطـم معظـم الأسطول العثماني في معركة ليبانتو ، وكان على قلج علي الذي تـولى قيادة الأسطول بعد بطولته في المعركة أن يعيد بناءه من جديد وبسـرعة بالغة حتى يستطيع أن يتصدى للأطماع الصليبية المتنامية فـي الشـمال الأفريقي. وكان عليه أيضا العمل من أجل استرجاع تونس من يد الأسبان وتصفية الوجود الحفصي الموالي لهم.

إعادة الفتح العثماني لتونس :

كان لخبرة قلج علي وسنان باشا الفضل الأول لإرجاع قوة الأسطول العثماني لسابق عهدها في وقت قياسي بعد تحطمه شبه كاملا عام ١٥٧١م ، وكان للدليل الأكبر على ذلك هو تحرك الباب العالي بمنتهى السهولة في كل أرجاء الإمبراطورية بعد أقل من سنتين من معركة ليبانتو ، فها هو سنان باشا يستطيع إخماد قوة اليمن عام ١٥٧٣م ، وهى التي تبعد كل البعد عن مركز الأسطول باستانبول.

هكذا قرر السلطان العثماني سليم الثاني بن السلطان سليمان القانوني تسخير كل الجهود لفتح تونس من جديد وإنهاء الحكم الاسباني والموالين له إلي الأبد ، خاصة في حلق الوادي الذي أدى للوجود الاسباني بها إلي الكثير من المشاكل للوجود العثماني في الشمال الإفريقي ولم يكن قرار السلطان سليم منفردا بل لاقى الإجماع من مستشاريه إلى جانب رؤساء البحر الذين علموا جيدا مدى الضرر الذي لحق بالبحرية العثمانية والنفوذ العثماني من جراء تواجد الأسبان بقلعة حلق الوادي .

وهكذا قام الباب العالي بإرسال فرمانات إلي الحكام العثمانيين في مدن البحر المتوسط ، مخبرا إياهم بقرار الحملة الرسمية إلى تونس ، وناشدهم بتقديم المساعدة مهما كان نوعها . وقد أحاط السلطان سليم الثاني حيدر باشا بهذا القرار[٦٤] عن طريق خطاب أوضح فيه مدى الإمكانات الهائلة التي أعدها لهذه الحملة ، والتي توضح مدى الإصرار الشديد من السلطة العثمانية في فتح هذا الإقليم والذي بفتحه سيستقر الحكم العثماني في الشمال الأفريقي ، بل لن تشوبه شائبة.

أما عن موقف اسبانيا في ذلك الوقت فقد علمت بأمر هذه الحملة ، ولقد سعت في الحال للعمل على القيام برد فعل سريع للمحافظة على

تونس ، لكنها كانت تعاني من وضع اقتصادي سيء للغاية بالإضافة إلـــي فقدان توازن أسطولها ، هذا إلي جانب عامل الوقت الذي لم يكــن فـــي صالحهم فقد كانت الإدارة العثمانية حاسمة وسريعة جدا في هذا الشـــأن ، وعليه فقد أصبح المجال مفتوحا للأسطول العثماني الذي وصل إلي تونس بتاريخ ١٥٧٤/٧/١١م ، وقد ركز العثمانيون كل قواهم علـــي الضـــفاف الجنوبية والشمالية لقلعة حلق الوادي.

كانت القيادة البرية الحقيقية لقلج علي باشا ، حيث كانت خطتــه تقضي بادئ الأمر القضاء نهائيا علي قلعة حلق الوادي الخطيرة. وبعــد حرب ضروس دامت أكثر من ستة أسابيع دافع فيها الجانبان عن القلعة ، واستعمل العثمانيون بالتعاون مع الأهالي كل الوسائل للقضاء علي القلعة التي سقطت بتاريخ ١٥٧٤/٨/٢٥م ، وقضي علي الطـــابع التحصـــيني الاسباني بها وخربت تماما(٦٥).

واضطر الأسبان والأمير الحفصي الموالي لهـــم إلـــي الهـــرب والالتجاء للحصون ، فلحق بهم الجيش العثماني ، وتمكن سنان باشا مـــن تضييق الخناق علي الحاميات الاسبانية حتي استسلمت للجيش العثماني ، وقبض علي آخر الأمراء الحفصيين وأرسل إلي القسطنطينية ، وانطوت بذلك صفحة الحكم الحفصي في تونس نهائيا ، بعد أن حكموا هذه الـــبلاد ما يقرب من ثلاثمائة وخمسين عاما(٦٦).

وهكذا استطاع العثمانيون إعادة فتح تونس ، والقضاء نهائيا علي الحكم الاسباني والحفصي بها. ولما أتم سنان باشا فتح تونس أخذ يــنظم شئونها فألحقها في البداية بولاية الجزائر ، ولقد استقر الحكم العثماني في تونس حتي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عندما احتلت مـــن قبـــل فرنسا. والجدير بالذكر أن تونس أصبحت في العهد العثماني أكبر مـــأوى

للأندلسيين الفارين من الحكم الاسباني ، فقد استقر بها الآلاف من الموروسكيين الذين أقاموا عدة مدن كبيرة واستقروا بها ، والتي أدت بعد ذلك إلي الارتقاء بمجتمع الشمال الأفريقي خاصة إقليم تونس.

ولقد ارتبطت إمارات الشمال الإفريقي بإمارة الجزائر ، لكن لم يستمر ذلك طويلا حيث انفصلت إمارتي طرابلس وتونس بعد ذلك ، وأصبحتا تدار بشكل مستقل كل واحدة عن الأخرى ، وعين على كل منها أمير أمراء ربط باستانبول مباشرة وكان ذلك عام ١٥٧٧م .

ولقد حاول العثمانيون منذ سيطرتهم على الجزائر في النصف الأول من القرن السادس عشر أن يمدوا نفوذهم إلي إقليم المغرب الأقصى والذي كان تابعا لأمراء بني وطاس الضعفاء ، ولكن ما لبث هذا الإقليم أن شهد تغيرات سياسية بعد سيطرة البرتغاليين على معظم ثغوره الساحلية ، حيث ظهرت حركة مقاومة حاولت السيطرة على البلاد ، ولقد لاقت هذه الحركة تأييدا شعبيا كبيرا لنسبها الشريف أولا ، ثم لما بذلته من جهاد ضد النفوذ البرتغالي حتى قضت على أجزاء كبيرة منه ، وفي الفصل القادم تفصيلا لأوضاع المغرب الأقصى السياسية والتى أدت به في النهاية إلي مناهضة العثمانيين والاستقلال عن نفوذهم في الشمال الأفريقي.

هوامش الفصل الرابع

١- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٧٦ : ٧٨.

٢- المرجع السابق ، ص٧٨ ، ٧٩.

٣- المرجع السابق ، ص٨٠ ، ٨١.

٤- المرجع السابق ، ص٨٢ : ٨٤.

٥- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩١٣.

٦- المرجع السابق ، ص٩١٤.

٧- أندريا دوريا : ولد عام ١٤٩٨ م.في مدينة جنوة الايطالية ، تعلم فن الحرب والمغامرة البحرية ، عندما بلغ سن الأربعين التحق بالبحرية وأظهر براعة فائقة ، أصبح قائدا للأسطول الجنوي عام ١٥١٣م ، ثم قرر الالتحاق بالأسطول الفرنسي ، بعدها عاد مرة أخرى إلي ايطاليا وصل أميرالا بالبحرية ، مارس أندريا دوريا القرصنة لحسابه الشخصي وجمع أمولا كثيرة من جراء ذلك ، قاد الأسطول الاسباني في عدة مواجهات مع الأساطيل العثمانية ، يعتبره المؤرخون من أفضل القادة البحريين وأمهرهم في العالم المسيحي. (انظر: الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ص٩٤ هامش(١)

٨- المرجع السابق ، أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية الخ ، ص٢٥٦.

٩- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١٠٣.

١٠- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولـــة العثمانيـــة الـــخ ، ص٩١٥ ، ٩١٦.

١١- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١١١.

١٢- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، نقلا عن محمد فـــارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الي الاحتلال الفرنســـي ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٩م ، ص٣٤.

١٣- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١١٢.

١٤- المرجع السابق ، ص١١٦.

١٥- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولـــة العثمانيـــة الـــخ ، ص٦١٧.

١٦- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١١٨.

١٧- المرجع السابق ، علي الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٢٢١.

١٨- حسن أغا : هو خادم الريس خير الدين الذي أســـره فـــي إحـــدى غزواته على سواحل سردينيا ، وعند توزيع الغنائم كان الطفل من نصيب خير الدين ، قام خير الدين بربار وسا بتبنيه حيـــث علمـــه ولديه كأحد أولاده ، كان حسن أغا ذكيا وعاقلا ، فلم يقم بعمل إلا وأتمه على أحسن وجه ، لهذا عينه خير الدين وكيلا على الجزائر لاعتقاده الأكبر بأنه سيدير البلاد إدارة جيدة ، وفعـــلا لـــم يخيـــب رجاءه فيه ، فقد كان حسن أغا من خير من تولى إدارة الجزائر.

١٩- المرجع السابق ، علي الصلابي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٢٢١.

٢٠- عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني ، مقال في المجلة التاريخية المغربية عدد ٣ ، يناير ١٩٧٥م ، ص٤٠.

٢١- المرجع السابق ، ص٤٠ ، ٤١.

٢٢- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩١٨ ، ٩١٩.

٢٣- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص١٦٠ : ١٦٩.

٢٤- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، ص ٩١٩ ، ٩٢٠ ، نقلا عن عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة.

٢٥- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير الخ ، ص٨٨ ، ٨٩.

٢٦- دارغوث باشا : للريس دارغوث مكانة كبيرة في تاريخ طرابلس الغرب خاصة والشمال الأفريقي عامة ، ولد على الأرجح عام ٨٩٠ للهجرة اشتغل دارغوث منذ الصبى مساعدا ومرشدا ومدفعيا ، ولما بلغ عام ٩١٠ العشرين من العمر أصبح بحارا ذا خبرة وتجارب ، ويظهر من هذا التاريخ أن دارغوث زاول الملاحة والقرصنة قبل الأخوان عروج وخير الدين ، عمل دارغوث مساعدا للأخوان برباروسا وزوج ابنته لحسن نجل خير الدين ، استشهد أثناء الحصار العثماني لجزيرة مالطة عام ١٥٦٥م.

٢٧- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩٢٢.

٢٨- المرجع السابق ، ممدوح حسين ، الحروب الصليبية في الشمال الافريقي وأثرها الحضاري ، ص١٨.

٢٩- المرجع السابق ، ص١٨.

٣٠- المرجع السابق ، ص٥٠٢.

٣١- عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية – المغربية في القرن ١٦ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية – تونس العدد ٢٩ – ٣٠ يوليو ١٩٨٣م ص٧٤.

٣٢- عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون في افريقيا الشمالية ، الجزء الأول في طرابلس الغرب ، دار الفرجاني ، القاهرة – طرابلس – لندن ، ص٢٢.

٣٣- رودس : هي جزيرة صغيرة ، تقع بالقرب من شاطئ آسيا الصغرى في جنوب شرق بحر ايجه وهو الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، وتعتبر ذات موقع استراتيجي هام.

٣٤- المرجع السابق ، عايض بن حازم الروقي ، جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة الي الحرمين الشريفين ، ص٥٥٠ ، ٥٥٣.

٣٥- المرجع السابق ، ص٥٥٥.

٣٦- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٧٥.

٣٧- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، الجزء الأول ، ص٣٧ ، ٣٨.

٣٨- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٧٦.

٣٩- المرجع السابق ، ص٧٦.

٤٠- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، الجزء الأول ، ص ٤٥ ، ٤٦.

٤١- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٧٧.

٤٢- قلج علي باشا : من القيادات البحرية المتفردة ، لا يقل كفاءة ومهارة عن الريس خير الدين ودارغوث باشا ، تصر المراجع الأوروبية على أنه كان مسيحيا في بداية حياته ومن جنوب أطاليا ، بينما تقرر المراجع التركية أنه كان عثمانيا إسلامي المولد ، والتحق بخدمة الأسطول وتدرج في مناصبه ، اشترك مع دارغوث باشا في صد حملة الإمبراطور شارل الخامس على جزيرة جربة في تونس ، ثم رقي إلى منصب بكلر بك طرابلس ثم بكلر بك الجزائر ، اشترك في معركة ليبانتو البحرية حيث كان قائدا للجناح الأيسر للأسطول العثماني ، ورقي بعدها إلى منصب قبودان باشا تقديرا لبطولته في المعركة ، ظل يشغل هذا المنصب طيلة خمسة عشر عاما ، توفي فجأة في مسجده الذي بناه في ضواحي استانبول عام ١٥٨٧م. (انظر : عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ص٩٢٣ ، ٩٢٤)

٤٣- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٨٠ ، ٨١.

٤٤- المرجع السابق ، ص٨١ ، ٨٢.

٤٥- المرجع السابق ، ص٨٣.

٤٦- المرجع السابق ، ص٨٤ ، ٨٥.

٤٧- المرجع السابق ، عايض الروقي ، جهود الدولة العثمانية الخ ، ص٥٥٦.

٤٨- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٨٧.

٤٩- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٥١٨.

٥٠- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٨٨ ، ٨٩.

٥١- المرجع السابق ، ص٨٩ ، ٩٠.

٥٢- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٢٢٣.

٥٣- المرجع السابق ، عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية الخ ، ص٩٢٣.

٥٤- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٩١.

٥٥- المرجع السابق ، عزيز ألتر ، الأتراك العثمانيون الخ ، ص٢٢٦.

٥٦- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٩٦.

٥٧- المرجع السابق ، ص٩٧.

٥٨- المرجع السابق ، ص٩٧.

٥٩- المرجع السابق ، أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التاريخ العثماني ، ص١٤٧.

٦٠- المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص٩٧.

٦١- المرجع السابق ، ص٩٨.

٦٢- المرجع السابق ، ص٩٩.

٦٣- المرجع السابق ، ص١٠٣ ، ١٠٤.

٦٤- حيث قال في رسالته : (لقد جهزنا لفتح حلق الوادي اللعينة التي سببت الاحتكاك والفساد في الولاية والتابعة حاليا لاسبانيا ، جهزنا

لتسخيرها ٣٠٠ من المراكب ، شبيهة بالكواكب ، وعددا وافرا من مماليك بابي وغيرهم من الزعماء وأرباب التجار وعددا وافرا من الجنود وسيتوجهون في أوائل محرم من السنة المقبلة وحالما يصلكم أسطولي المنصور ، تكون ورمضان باشا الذي هو أمير أمــراء جزائر الغرب ومصطفى باشا أمير طرابلس وأحمد عرب باشا أمير أمراء جزائر الغرب سابقا وأنت على قلب واتجاه واحد فترجعــون وتنظرون ايها انسب ، محاصرة حلق الوادي أو حصار البستيون). (انظر : المرجع السابق ، عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية الخ ، ص١٠٥).

٦٥- المرجع السابق ، ص١٠٥.

٦٦- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبيــر الــخ ، ص١٠٨.

الفصـل الخـامـس
العلاقـــات العثمانية المغربية
خلال القرن السادس عشر

- تمهيد.
- الوجود البرتغالي في المغـرب وظهـور الأشــراف السعديين.
- الدور العثماني فـــى الصـــراع بـــين بنـــي وطـــاس والسعديين.
- النزاع على السلطة في المغرب ودور العثماني فـــي معركة وادي المخازن.
- المغرب الأقصى فى عهد أحمد المنصور الذهبي.

الفصل الخامس

العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن ١٦

تمهيد :

لعبت العلاقات المغربية العثمانية دورا هاما في مطلـــع التـــاريخ الحديث ، وبناء على هذه العلاقات التي استمرت منذ دخـــول العثمـــانيين الشمال الأفريقي تشكلت علاقات أخرى متشـــعبة بـــين دول المنطقتـــين الأوروبية والأفريقية مثل اسبانيا والبرتغال على الجانـــب الأوروبـــي ، وبعض ممالك غرب أفريقيا مثل غانا والسودان الغربي علـــى الجانـــب الآخر، وقد تأسست تلك العلاقات بين الدولة العثمانية والمغرب منذ مطلع القرن السادس عشر الميلادي مع بدء حركة المقاومة في الشمال الأفريقي ضد الأسبان والبرتغاليين.

إن علاقات المغرب بالدولة العثمانية تكتســـي أهميـــة خاصـــة ، باعتبار أن المغرب ظل البلد الوحيد من بلدان العالم العربي الذي أفلت من الخضوع للإمبراطورية العثمانية ، كما أن المغرب كان يمثـــل مســـرحا للصراع بين المسيحية ممثلة في الدول الأوروبية والإسلام ممثلا في دولة الخلافة العثمانية[١].

ولعل هذا الصراع الذي ظل قائما بين البلدين كان صراعا علـــى النفوذ وأحقية هذا النفوذ في المقام الأول ، وهذا ما لم يحدث بين الدولـــة العثمانية وأي بلد آخر من بلدان العالم العربي سوى المغرب التي نازعت دولة الخلافة في السلطة الروحية التي دانت لهـــا كافـــة أقطـــار العـــالم الإسلامي السني.

فمنذ تولي الأشراف السعديين السلطة في المغرب وجـــدوا أنهـــم أحق بخلافة المسلمين وبالفعل أتخذ بعض الحكام السعديين لقب الخليفة ،

وكان هذا استنادا لنسبهم الشريف الذي يجعلهم أحق بالخلافة من الترك العجم ولذلك لم يعترفوا بالخلافة العثمانية ولم يدينوا لها ، وعلى النقيض من ذلك أحس العثمانيون أنهم أولى وأحق بشرف خلافة المسلمين فقد اعترف بهم شريف مكة نفسه وأعطاهم مفاتيح الكعبة وتلقب السلطان العثماني بخادم الحرمين الشريفين ، إلي جانب أن الدولة العثمانية كانت في ذلك الزمان أقوى الدول الإسلامية قاطبة بل أصبحت إمبراطورية ضمت بين جنباتها معظم أراضي للدولة الإسلامية الأولى بل وألحقت بها أقطار جديدة نشرت فيها الدين الإسلامي مثل شرق أوروبا ، هذا إلى جانب أنها تحمل على عاتقها الدفاع عن الإسلام والمسلمين في جميع أنحاء العالم.

وانطلاقا من هذا التناقض قام الصراع بين الطرفين العثماني والمغربي الذي كان في بعض الأحيان صراعا عسكريا مباشرا وفي البعض الآخر صراعا متخفيا خلف قناع المهادنة.

لقد كان حلم العثمانيون بعد إخضاعهم شمال أفريقيا لحكمهم في عهد السلطان سليمان القانوني هو إخضاع المغرب الأقصى أو عقد تحالف إسلامي من شأنه أن يعينهم على حربهم ضد الصليبيين وليتسنى لهم طرد الصليبيين نهائيا من أراضي المغرب بل وإعادة الأندلس لحظيرة المسلمين ، ولكن رغم ذلك باءت كل المجهودات في ضم المغرب بالفشل نتيجة لعقد الحكام المغاربة التحالف مع القوى الصليبية التي لها مصالح في المغرب مثل اسبانيا والبرتغال لضمان بقائهم بمنأى عن التدخل العثماني هذا إلي جانب انشغال الدولة العثمانية في كثير من الأحيان بحروبها الأخرى المتعددة.

الوجود البرتغالي في المغرب وظهور الأشراف السعديين :

كانت السلطة الحاكمة في المغرب الأقصى مع بداية التدخل العثماني الواسع النطاق في الشمال الأفريقي في القرن السادس عشر هي سلطة بني وطاس البقية الباقية من بني مرين والتي قد آلت إلى درجة من كبيرة من الضعف ، فكانت بذلك من الأسباب المباشرة لنجاح الغزو البرتغالي للمغرب الأقصى في القرن الخامس عشر وبدايات السادس عشر.

لقد مهد جيان الثاني الذي حكم البرتغال بين عامي (١٤٨١-١٤٩١م) لبسط النفوذ البرتغالي على ميناءي أسفي وأزمور ، فقد عقد مع شيوخ القبائل في المناطق المحيطة بالمينائين معاهدات كفلت بعض الامتيازات للبرتغاليين حتى استطاع البرتغاليون في عهد الملك عمنوائيل الأول الذي اعتلى العرش عام ١٤٩١م من بسط نفوذهم على كل من أسفي وأزمور الواقعتين تحت الحكم الوطاسي الضعيف بواسطة الدسائس والاتفاقيات مع مشايخ القبائل في هاتين المنطقتين . ولقد عانى المواطنون خاصة في أسفي من تدخل النفوذ الأجنبي حيث أذاقهم البرتغاليون العذاب ألوانا ، وأهانوا المعابد الدينية وجعلوا المسجد الكبير محلا للقاذورات وعبثوا بالمحارم واستباحوا التجارة في الأحرار فباعوا أهلها جهارا وسفكوا الدماء ونهبوا الأموال وهدموا الدور(٢).

ولقد تم لهم السيطرة الكاملة على مدينة آسفي عام ١٥٠٨م وأزمور عام ١٥١٣م ، وبعد سيطرتهم الكاملة على المدينتين وبعض المدن الساحلية الأخرى الهامة مثل ماسة ومازكان وموداكور تطلعوا للسيطرة على مدينة مراكش نفسها ولكن حملتهم باءت بالفشل ، كما باءت

بالفشل أيضا حملتهم لاحتلال موقع المعمورة المنفذ البحري لمدينة فاس في نفس السنة.

كما كانت أنظار البرتغاليون متجهه الي مدينة أكادير ، فقد كان لهذا الميناء أهمية خاصة باعتباره المنفذ لحاصلات منطقة السوس ومنتجاتها الوفيرة . وقد أدرك البرتغاليون هذه الأهمية منذ السنوات الأولى للكشوف الجغرافية فعمدوا منذ عام ١٤٤٧م لربط شيوخ القبائل في المناطق المجاورة باتفاقيات ، ومنذ أوائل القرن السادس عشر استطاع المغامر البرتغالي جو لوبيز (joao lopes sequira) عقد اتفاقيات تخول له وضع يديه على منطقة أو أكثر من الساحل المغربي على المحيط الأطلسي ولكنه تنازل للحكومة البرتغالية عن كافة حقوقه عام ١٥١٣م حيث حلت الحكومة محله وأصبحت المنطقة تحت اشرافها(٣).

أما عن مدينة ماسة فقد أشارت الوثائق البرتغالية عن كيفية سيطرة البرتغال على هذه المنطقة ، حيث أعلن ثلاثة شيوخ قبائل في ماسة ولاءهم للملك البرتغالي وتعهدوا بتيسير بناء قلعة برتغالية في المكان الذي تراه البرتغال مناسبا . ومن الوثائق يتضح لنا أنه حتى عام ١٥١٠م لم تكن سلطة البرتغال الرسمية قد بسطت على هذه المنطقة لكن البرتغال كانت تعتمد على ارتباطها ببعض شيوخ القبائل ، لكن منذ عام ١٥١٣م قد حلت الحكومة البرتغالية في إدارة هذه المنطقة مكان المغامر البرتغالي سالف الذكر(٤).

حاولت الحكومة البرتغالية بعد ذلك بسط نفوذها على العاصمة مراكش ولكنهم فشلوا في ذلك واضطروا للانسحاب ، وكان لهذا الانتصار دورا كبيرا في تراجع النفوذ البرتغالي في المغرب بعد ذلك ، وقد شجع هذا الانتصار المغاربة على معاودة الهجوم على القوات البرتغالية في

الثغور المغربية الأخرى ، وقد تضاعف فشل البرتغاليين في الوصول إلي مراكش بعد عجزهم عن توسيع نفوذهم في حوض نهر سبو بهدف فتح الطريق نحو فاس ، وبالرغم ما كانت تعانيه الدولة الوطاسية من ضعف في أيامها الأخيرة إلا أنها استطاعت بمعاونة الآلاف من الشباب المغربي المتحمس الدفاع عن مركز من أهم مراكز حضارته . ويعتبر جمهرة الكتاب البرتغاليين أن هذه الأحداث كانت نذيرا بانحسار موجة التوسع البرتغالي في المغرب وينظرون لعصر عمانويل الأول علي أنه قمة ما وصل اليه النفوذ البرتغالي في المغرب ، بينما يعتبرون عصر جيان الثالث (١٥٢١- ١٥٥٧م) عصر تصفية هذا النفوذ[٥].

كان ضعف السلطة الوطاسية في فاس سببا مباشرا في ظهور الأشراف السعديين[٦] كمجاهدين لهم شعبية جارفة في المغرب بسبب نشاطهم الملحوظ ضد الاستعمار البرتغالي للساحل المغربي على المحيط الأطلسي ، وكانت هذه القوة الجديدة قوة برية على عكس قوة رؤساء البحر التي سيطرت على الجزائر ، ولقد نجح السعديون في تخليص كثير من الموانئ المغربية من أيدي الأجانب ، حيث ظهروا في بادئ الأمر في إقليم السوس وهو الإقليم الذي حاولت كل من البرتغال واسبانيا احتلال مخارجه على المحيط الأطلسي.

ولقد تحولت هذه القيادة الجديدة إلي دولة ثابتة مدعمة التف حولها الأهالي لكي تقوم بمهمتها تجاه الاستعمار ، وقد تمكنت هذه الدولة الناشئة من أن توحد الأهالي في جنوب المغرب وتحارب بهم قوات الاستعمار واستطاعت مد سلطتها على القبائل المحيطة ، وأصبحت أمل المغرب الأقصى في الاحتفاظ باستقلاله والوصول الي وحدته[٧].

وإذا كان الأشراف السعديون قد وصلوا إلى الحكم في أول الأمر كمحررين للمغرب الأقصى من الأخطار المحدقة به من الاستعمار ، فما لبثوا أن تحولوا بسرعة إلي قيادة اقطاعية ، تعتز بحسبه ونسبها وتعتمد على الطبقات والحقوق والامتيازات ، وكان هذا نتيجة لنمو القيادة من ناحية ، وطبيعة تكوينها من ناحية أخرى ، وطبيعة القوى المجاورة لها وعلاقتها بها ، وتهديدها لامتيازاتها أو ترابط مصالحها معها[٨].

ومع نمو سلطة قيادة الأشراف السعديين واتجاهها صوب الخارج اضطرت إلي أن تصطدم هناك بقوة الأجانب الموجودة في الموانئ ولكنها وصلت في نفس الوقت إلي سواحل كان أبناؤها يشاركون أخوانهم في الجزائر في عملية الجهاد البحري ضد المسيحيين ، وشعرت القيادة السعدية أن هذا التكامل بين رجال البحر من مغاربة وجزائريين يمثل خطرا عليها ، وكان ذلك سببا أساسيا في اصطدامات وقعت بين الأشراف السعديين وبين كل من رجال البحر المغاربة والجزائريين ، وقد ظهرت هذه الاصطدامات في شكل محاولات متتالية لإخضاع الموانئ المغربية لسلطة الدولة السعدية ومحاولات أخرى لإبعاد نفوذ الجزائريين والعثمانيين عن شمال أفريقيا[٩].

الدور العثماني في الصراع بين بني وطاس والسعديين :

على صعيد آخر استطاع الأتراك العثمانيون عام ١٥٤٨م القضاء على سلطة بني زيان نهائيا في عاصمتهم تلمسان حيث أمسكوا بزمام الأمور بقوة وأقاموا على أمارتها الأمير حسن ووضعوا بها حامية من مائتي تركي[١٠].

وهكذا أصبح العثمانيون على أعتاب المغرب الأقصى وبدأوا في التطلع إلي إخضاع سلطنة فاس الوطاسية تمهيدا لإخضاع باقي المغرب

والشمال الأفريقي تحت حكمهم، وقد تابع العثمانيون من منتصف القرن السادس عشر زحفهم غربي تلمسان وضموا إليها وجدة في شرقي المغرب وذهبت أساطيلهم ترسوا على السواحل المغربية الشمالية وجددوا من تدخلاتهم السياسية والعسكرية في أحداث فاس ومراكش[11].

ولقد تولى قيادة السعديين في بادئ الأمر رجل من الأشراف لقب بمحمد القائم بأمر الله وكان ذلك عام ١٥٠٩م وبعد وفاته سنة ١٥١٧م انتقلت السلطة الي ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج ، ولقد نجحا هذان الأميران من تحرير آسفي وأزمور في نهاية الثلاثينيات وبداية الأربعينيات من القرن السادس عشر .

ولقد عرض الوطاسيين على محمد الشيخ المهدي تولي أمر مراكش باسمهم وهم يحكمون فاس ولكنه رفض هذا العرض اذ أنه كان يطمع في توحيد كل المغرب تحت سلطته ودخل بذلك في نزاع مع أخيه أحمد الأعرج ومع الوطاسيين في نفس الوقت وانتهى هذا الصراع بدخوله مدينة فاس عام ١٥٤٩م وأصبح بذلك المؤسس الفعلي للدولة السعدية في المغرب[12].

والجدير بالذكر أنه قبل دخول السعديين إلي مدين فاس وانتهاء حكم الوطاسيين بها ، لم يجد الوطاسيين بدا من التزلف للأتراك والاحتماء بهم بالدعاء للخليفة العثماني على المنابر وضرب السكة باسمه ، لكن السعديين لم يمهلوهم واقتحم عليهم محمد الشيخ مدينة فاس وقبض على الوطاسيين باستثناء ابي حسون الذي استطاع الفرار إلي الجزائر وحاكمها يومئذ حسن باشا بن خير الدين بربروسا[13].

وجد الأتراك العثمانيون أنفسهم أمام أحد خيارين ، إما أن يعيدوا الحكم الوطاسي إلي المغرب لضمان عودة نفوذهم على هذه المناطق

والذي سيمهد لهم الطريق لإخضاع باقي المغـرب ، وإمـا أن يرضـوا بالأمر الواقع ويبدأوا في التعامل مع سلطة السعديين الجديدة وفـي هـذه الحالة سيكون تدخلهم أصعب من ذي قبل خاصة مع الشعبية التي يتمتـع بها الأشراف السعديين لوقوفهم أمام الاحتلال البرتغالي . وهكـذا قـرر العثمانيون الاستعداد للدخول إلي المغرب وإعادة أبو حسون الي عرشه ، وقد أقضت هذه الأخبار مضجع محمد الشيخ فصرف نظره عمـا كـان بصدده من تمهيد الشمال.

وبدأت القوات العثمانية في التحرك تجاه المغرب لإعـادة أبـي حسون ، فحدثت صدامات كبيرة بين قوات محمد الشيخ والقوات العثمانية قرب حجر باديس ولحقت الهزيمة بالقوات السعدية ، فواصل العثمـانيون زحفهم نحو الداخل واستطاعوا دخول مدينة تازة بعد معارك متواصلة مع السعديين ، وبعد ذلك استطاع العثمانيون دخول فاس ومعهم أبو حسـون في عام ١٥٥٤م[١٤] ، وخطب على منابرها للسلطان العثماني من جديـد وهكذا ظهر وكأن المغرب قد توحدت مع باقي ولايات الشمال الأفريقـي تحت الراية العثمانية .

فزعت اسبانيا والبرتغال لرؤية بداية السيطرة العثمانية على بعض المواقع المغربية خصوصا القريبة من مراكزهم الاستعمارية ، مما سيمهد بلا شك لمحاولاتهم لاسترداد الأندلس ، وقد بعث الملك البرتغالي جيـان الثالث إلي الإمبراطور شارلكان رسالة يحثه فيها على التـدخل السـريع لمواجهة العثمانيين قبل توطيد حكمهم في المغرب ، مما سيكون له عظيم الأثر على كل من النفوذين الاسباني والبرتغالي[١٥].

لم يمكث العثمانيون أكثر من أربعة أشهر ضمنوا فيها اسـتتباب الأمر لأبي حسون ، الذي حاول بعد خروج العثمـانيين الوصـول إلـي

مراكش للقضاء على محمد الشيخ وتوحيد باقي المغرب تحت السيادة العثمانية ، واستطاع في بادئ الأمر أن ينزل بالسعديين هزيمة كبيرة ، إلا أن محمد الشيخ استطاع بحيلة ماكرة أن يقتل أبا حسون(١٦).

هكذا مات أبو حسون بعد تسعة أشهر تقريبا من عودته إلى فاس ، وضاعت بموته فرصة كبيرة للعثمانيين لإعلان السيادة على المغرب وتوحيده مع بقية الإمارات العثمانية في الشمال الأفريقي.

هكذا انتهت سلطة بني وطاس إلي الأبد واستطاع السعديون إتمام السيطرة على المغرب الأقصى بالقوة ، مما سيؤدي بعد ذلك إلي التنافر بين القوة السعدية الناشئة وبين العثمانيين الذين أملوا في تكوين اتحاد إسلامي كبير ومجاهد يواجه الأخطار الخارجية ويحاول إعادة الأندلس للمسلمين ، ولكن محمد الشيخ رفض عروض العثمانيين بل ورفض الاعتراف بالخلافة العثمانية ، وزاد علي ذلك تقربه للأسبان بغية التحالف معهم ضد العثمانيين ، وهذا ما أدهش الأسبان الذين توقعوا ذلك التحالف الإسلامي الجهادي ضدهم وضد الوجود البرتغالي في البلاد .

النزاع على السلطة في المغرب ودور العثمانيين في معركة وادي المخازن :

بعد استتباب السلطة لمحمد الشيخ في المغرب الأقصى و بعد قضائه نهائيا على سلطة الوطاسيين كما سبق الذكر حاول السلطان سليمان القانوني إقناعه بعقد تحالف عثماني مغربي من شأنه أن يقف أمام الأخطار الخارجية ولكن محمد الشيخ رفض تماما بل لم يعترف بالخلافة العثمانية العجمية واعتز بحسبه ونسبه وبأنه أمير المؤمنين وأنه لا يمكن لأحد أن يقدم عليه سلطانا تركيا أو أعجميا ، ولم يقف الأمر إلي هذا الحد بل إن محمد الشيخ المهدي حاول أن يزيد من سلطته في المغرب الكبير حتى إقليم وجدة ، وحتى مدينة تلمسان التي كانت همزة الوصل بين

المغرب الأقصى والجزائر ، وكانت عاملا مهما في توطيد الحكم السعدي في المغرب والحد من التدخل العثماني.

وفعلا استطاع محمد الشيخ احتلال تلمسان وضمها إلي المغرب وكان من المنتظر أن تستأنف الحملة رحلتها نحو مزيد من التوسع ، وقد تسبب سقوط تلمسان في أيدي محمد الشيخ المهدي في إزعاج باشا الجزائر الذي سارع إلي جمع قواته حيث دارت عدة معارك فاصلة في تلمسان ذاتها بين العثمانيين والسعديين انتهت بهزيمة السعديين هزيمة ساحقة وقد تتبع الأتراك فلول السعديين حتى نهر ملوية[١٧].

وبعد الهزيمة القاسية التي مني بها المغاربة أدرك السلطان العثماني سليمان القانوني ما ستخلفه مثل هذه التدخلات من أثر في نفوس المغاربة ، فقد كان باستطاعته بعد هذه الهزيمة القاسية أن يأمر الجيش من إتمام عمله بإخضاع المغرب كاملا ولكنه أدرك أن جهاده في الشمال الأفريقي كان وسيظل ضد الصليبيين الذين أرادوا إخضاع هذه البلاد وليس ضد إخوانه من المسلمين المجاهدين .

وهكذا نجده يبعث برسالة إلي السلطان محمد الشيخ يخبره فيها بعزل حسن باشا الذي لم يحسن الجوار ويحيطه علما بأنه عين صالح باشا واليا على الجزائر والذي يتمنى أن تكون علاقته به حسنة ، ولم يكتف السلطان سليمان ببعث الرسائل ولكنه تبع ذلك بإرسال سفارة هامة إلي مراكش برئاسة العلامة الصالح أبي عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي القارقاريشي نزيل الجزائر بقصد المهادنة بين السلطانين ، وتذكر بعض المصادر المغربية أن السفير جاء ليقترح على العاهل المغربي عقد سلام بين البلدين ولكنه طلب من ملك المغرب أن يعترف بالسيادة العثمانية وأن ينقش اسم السلطان العثماني على قطع العملة

المغربية على نحو ما كان في أواخر العهد الوطاسي ، وتروي المصادر المغربية أن محمد الشيخ قال للخروبي : (سلم على سلطانك أمير القوارب وقل له أن سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله)[١٨].

وكان نتيجة هذا الفشل في المساعي التركية للتوصل إلي الصلح والمهادنة مع محمد الشيخ شريطة أن يعترف بالخلافة العثمانية أن ازداد التقارب بين الأشراف السعديين والأسبان ، فقد كان الأسبان يترقبون التعاون التام بين محمد الشيخ السعدي والأتراك العثمانيون ويهيئون أنفسهم لهذا الظرف الجديد خاصة أنهم يعلمون أن هذا التقارب سيكون له تأثير كبير على القضيتين الأساسيتين : الثغور المحتلة والقضية الموريسكية[١٩].

لكن محمد الشيخ أبدى في علاقته مع العثمانيين ثم تقاربه مع الأسبان ما لم يكن في الحسبان ، فقد سعى محمد الشيخ للتقرب من الأسبان بل وطلب مساعدتهم لمواجهة العثمانيين.

وقد أرسل حاكم وهران فعلا إلي فاس وفدا يتكون من ثلاثة أشخاص جاؤوا للاتفاق مع محمد الشيخ حول تهيئ حملة مشتركة اسبانية مغربية ضد الأتراك ، وقام العثمانيون بأول رد فعلا نتيجة التقارب السعدي الأسباني ، فشددوا الحصار على وهران باعتبار أن حاكمها الاسباني كان أداة الاتصال بين فاس ومدريد ، إلا أن جميع الجهود فشلت نتيجة التجدات المتواصلة التي كانت تبعثها اسبانيا للمدينة المحاصرة[٢٠].

وعلى أثر كل هذا قرر العثمانيون التخلص من محمد الشيخ بأية وسيلة فقد تجاوزت خيانته في وجهة نظرهم الحد الذي يمكن السكوت عنه فدبروا مؤامرة للتخلص منه فأرسل السلطان العثماني جماعة من الجند

(اثني عشر جنديا) دخلوا في خدمة محمد الشيخ بحجة أنهم هاربون من الجيش التركي حتى اطمأن إليهم وانتهى الأمر بقتله في عام ٩٦٤هـ/١٥٥٧م .

وبعد ذلك اتجه حسن باشا إلي الأسبان الذين أعدوا العدة لمهاجمة مستغانم حيث انتهت المعركة بهزيمة الأسبان هزيمة ماحقة[٢١].

وبعد مقتل محمد الشيخ بويع ابنه محمد عبد الله الغالب بالله بالسلطة في فاس ثم والته بيعة مراكش ، وكان عليه أن يواجه أطماع العثمانيين بالإضافة إلي قتال المستعمرين البرتغال ، وفي عام ١٥٥٧م تحرك حسن بن خير الدين باشا من الجزائر في جيش كثيف وصل إلى قرب عمالة فارس حيث التقى بجيش عبد الله الغالب وانتهت المعركة بهزيمة العثمانيين وفرار حسن باشا إلي باديس ، وعلى أثر هذا ازداد تقارب المغاربة مع الأسبان بل و من دول أوروبية أخرى.

لقد انتهج عبد الله نفس سياسة والده حيث التجأ إلي الأسبان تحت ضغط التهديد العثماني للمغرب ، إذ كانت علاقته مع الأسبان تشكل عامل توازن فقد كان يريد الحفاظ على كيان مستقل للمغرب بأقل قدر ممكن من الخسارة : إما التنازل عن نقاط معينة للأسبان وغيرهم أو احتواء المغرب بأكمله من طرف الأتراك[٢٢] ، ولقد قامت عدة ثورات في المغرب مناهضة لحكم عبد الله الغالب ، ولكنه استطاع القضاء عليها تماما حتى انه قتل ثلاثة من إخوته لرفضهم للبيعة بولاية العهد لابنه المتوكل ، مما جعل عميه عبد الملك وأحمد المنصور يفران خوفا من القتل.

ولما توفى عبد الله الغالب بالله عام ٩٨١هـ/١٥٧٤م فبويع لابنه السلطان أبو عبد الله المتوكل على الله ، لكن لم تدم مدة حكمه طويلا فقد نجح عمه أبو مروان عبد الملك بمعاونة الأتراك في أن ينتزع منه الحكم.

أما عن الظروف التي انتقل فيها الحكم من المتوكل إلي عمه أبي مروان عبد الملك لها أهميتها فيما يتعلق بتاريخ المغرب الأقصى وعلاقاته سواء مع الأتراك العثمانيين أو مع المستعمرين البرتغال والأسبان فقد لجأ عبد الملك وأخوه أحمد المنصور إلي تلمسان حيث أقاما عند واليها حسن باشا خشية بطش المتوكل بهما فقد عرف عنه ميله إلي سفك الدماء ، وكانا على صلة بأتباعهما بالمغرب الناقمين على المتوكل سلوكه ليهيئوا له الجو المناسب.

وقصد عبد الملك واحمد المنصور بعد ذلك الجزائر ومنها إلي القسطنطينية للاستنجاد بالسلطان العثماني ليعينهما على الاستحواذ على السلطة بالمغرب(٢٣).

ولم تكن هذه أولى علاقات عبد الملك مع العثمانيين فقد كان له معهم علاقات خاصة منذ لجوئه وأمه وإخوته إليهم من جراء طغيان عبد الله الغالب وانخراطه بين صفوف المحاربين العثمانيين إلي اشتراكه في معركة حلق الوادي بين العثمانيين والأسبان التي بمقتضاها دخلت تونس نهائيا في الإمبراطورية العثمانية(٢٤).

وقد انتهز العثمانيون تلك الفرصة الذهبية لفرض سيطرتهم على المغرب الأقصى ولو بشكل اسمي في البداية كما حدث من قبل في أواخر عهد الوطاسيين وليس من المستبعد كما يرى البعض بعد دخول عبد الملك فاس في صحبة القوات التركية ، أن تكون هذه الحاضرة قد كررت ما سبق وأن شهدته أيام دخول بوحسون الوطاسي عام ١٥٥٤م من ترديد الدعاء للسلطان العثماني وأن مساجد مراكش أيضا قد شهدت شيئا من هذا القبيل ، وقد كشفت الوثائق الأسبانية عن وجود حربي كبير للأتراك في

كثير من واقع المغرب في هذه المرحلة يمكن أن يساند النفوذ السياسي العثماني ويعلن عن مظاهر هذا النفوذ بما يخدم الغزو المرحلي[٢٥].

ولقد أمد السلطان العثماني عبد الملك كما تقول المصادر بقوة كبيرة بلغت نحوا من خمسة آلاف أو ستة آلاف فارس عربي وعشرين مدفعا[٢٦] سار بها عبد الملك وأخوه المنصور حتى أحواز فاس والتقيا بجيش ابن أخيهم المتوكل وانتصرا عليه حيث لاذ المتوكل بالفرار ودخل عبد الملك فاس عام ٩٨٣هـ/١٥٧٦م وبايعه أهلها ودخل مراكش في نفس السنة وبايعه أهلها أيضا وبقى هو في مراكش واستخلف أخاه أحمد المنصور على فاس وأعمالها[٢٧].

أما عبد الله المتوكل لقد أعاد الكرة على مراكش حيث وقعت معركة خندق الريحان عام ١٥٧٦م ، وفي هذه المعركة التي دارت رحاها مدة ثلاثة أيام ولجه عبد الملك تجمعا كبيرا من أنصار المتوكل حيث انتصر انتصاره الساحق بقوة محدودة ولكن لها خبرات وأساليب التنظيم العسكري العثماني والتي بفضلها لم يفقد عبد الملك في المعركة غير القليل من رجاله[٢٨].

وبعد هذه الواقعة فر المتوكل إلى طنجة ومنها إلى ملك الأسبان فاستنجد به ضد عمه عبد الملك فلم ينجده فتوجه إلى البرتغال ليستنجد بملكها دون سبستيان[٢٩].

ولقد انتهز دون سيستيان ملك البرتغال الشاب هذه الفرصة لإعادة نفوذه من جديد على الموانئ الغربية للمغرب إلى جانب الحد من ازدياد نفوذ الأتراك الذي يستشري في المغرب ويكاد أن يسيطر عليه ، لقد اعتقد دون خوان سفير اسبانيا في لشبونة أن مجئ الأتراك بقوة كبيرة في صحبة عبد الملك إلى المغرب ليس من قبيل مساعدة عبد الملك فحسب

ولكن من أجل الحصول لأنفسهم على ملكية بالموانئ الغربية واتجه بظنه في ذلك الوقت الي أن عبد الملك لم يمنحهم وعدا بذلك ولكن ربما عرضوا عليه مساعدته في تحرير طنجة في مقابل أن يمتلكوا موانئ مثل ميناء العرائش تسمح برسو الأسطول التركي في مياهها بالشتاء ، ومن منطلق هذا الاعتقاد طلب ملك البرتغال من فيليب الثاني ملك اسبانيا مساعدته على تفادي هذا الخطر بالاستيلاء على العرائش لما في هذه الخطوة من مزايا تكفل مصالح المملكتين معا[٢٠].

لكن لم تشارك اسبانيا رسميا في هذه الحملة وإن كان ملك اسبانيا قد وعد سبستيان بإمداده بسبعة آلاف جندي من الأسبان والايطاليين ومن الفاتيكان والألمان ، وحين بلغ عبد الملك أخبار استعدادات الملك البرتغالي لهذه المعركة أرسل له يثنيه عنها ويبصره بعواقبها ، وفي نفس الوقت كان أحمد المنصور يعبئ الجيش فجمع تحت رايته نحو مائة ألف مقاتل بينما قدر عدد الجنود البرتغاليين بنحو ١٢٥ ألف ، كما اشترك في المعركة عدد كبير من السفن الحربية .

وفي عام ١٥٧٨م توجه الجيش البرتغالي من لشبونة إلي طنجة ثم وضعوا أيديهم على أصيلا بمعاونة المتوكل على الله الخائن لبلاده ، وتابع جيش سبستيان سيره حتى وصل إلي الضفة اليسرى لوادي المخازن ووصل الجيش المغربي قبالة الجيش الغازي في هذا المكان حيث وقعت الواقعة الحاسمة بين الجيشين في عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م ، هزم فيها جيش عبد الملك جيش سبستيان وحليفه المتوكل هزيمة ساحقة وكان من بين القتلى ملك البرتغال والمتوكل على الله ، وأيضا حدث والمعركة في أشدها أن توفي عبد الملك لكن خليفته المنصور كتم خبر وفاته حتى لا يؤثر ذلك على نفسية الجيش المغربي ولذا سميت هذه المعركة بمعركة الملوك

الثلاثة ، وبويع أبو العباس أحمد المنصور بالخلافة بعد موت عبد الملك ، أما المتوكل فقد أخذت جثته وسلخت وملئت تبنا وأمر أحمد المنصور بأن يطاف بها في المدن والقرى ليكون عبرة ولقب منذ ذلك الوقت بالمسلوخ(٣١) .

المغرب الأقصى في عهد أحمد المنصور الذهبي :

كانت لمعركة وادي المخازن نتائج هامة على الصعيد الدولي والمحلي ، فقد ثبتت أقدام السعديين بشكل كبير في حكم المغرب ، بل أن نظرة الدول الأوروبية قد تغيرت كلية للمغرب ، وفتحت هذه المعركة صفحة جديدة للعلاقات بين المغرب وأوروبا ، هذا فضلا عن الضعف الشديد الذي حل بالبرتغال بعد مقتل ملكهم سبستيان حتى وصل الأمر إلى انهيارها تماما في الربع الأخير من القرن السادس عشر ودخولها تحت الحكم الاسباني عام ١٥٨٠م.

وعلى الصعيد العثماني اقترح السلطان مراد الثالث عقد تحالف مغربي عثماني ضد الأسبان بعد احتلالهم للبرتغال ، وعرض على سلطان المغرب إمداده بأسطول عظيم يستعين به في إعادة فتح الأندلس ، لكن لم يتضح موقف أحمد المنصور تجاه العرض العثماني . وكان القائد العثماني قلج علي في ذلك الوقت يتحين الفرص لتحقيق حلمه القديم كما ذكرنا آنفا في إعادة الحكم الإسلامي للأندلس ، خاصة بعد ثبات أقدام الدولة العثمانية في تونس ، وعدم وضوح موقف السلطان أحمد المنصور من التحالف العثماني ضد الأسبان.

هكذا صدرت الأوامر إلى قلج علي باشا بالتوجه إلى المغرب والسيطرة عليه لبدء العمل في استرداد الأندلس فوصل قلج علي إلى الجزائر عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م بينما كان المنصور يرابط بقواته عند نهر

تاتسيفت مستعدا لمواجهة العثمانيين ، حيث تقدم المنصور تجاه الحدود سادا مداخل البلاد وثغورها ، وما لبث بعد ذلك أن وجه المنصور سفارة إلي استانبول مخبرا السلطان العثماني بوصوله إلي شبه اتفاقا عسكريا مع الملك الاسباني لموازرته ضد العثمانيين في مقابل تنازله عن مدينة العرائش وبعض الامتيازات الأخرى . وأمام تطور الأحداث لم يجد السلطان العثماني بدا من قبول الأمر الواقع والتراجع عن غزو المغرب(٣٢).

أما على صعيد العلاقات الودية بين المغرب والدولة العثمانية فقد صفا الجو بين البلدين على أثر قبول السلطان مراد بالأمر الواقع وميله إلي سياسة المهادنة بينه وبين سلطان المغرب ، إذ أن السلطان أحمد المنصور لم ينس للسلطان مراد العثماني نجدته له ولأخيه أبي مروان عبد الملك ضد المتوكل على الله ، لذا لم ينس المنصور اثر بيعته في وادي المخازن أن يكتب للسلطان مراد العثماني بما أحرزه من نصر على جيوش البرتغال وقد وفدت له رسل السلطان مراد ومعهم الهدايا لتهنئته(٣٣).

وقد جاءت الرسائل السعدية إلي العثمانيين دليلا على صفاء جو العلاقات المغربية – التركية في عهد المنصور الذهبي ، وفي بعض هذه الرسائل أدلة على استئناف الجهاد في المغرب ، مما قد يفهم منه أن المشاورات بين السعديين والعثمانيين كانت جارية لاسترداد الأندلس وتخليص المسلمين المعذبين فيها(٣٤).

فبعد موت السلطان مراد الثالث بعث أحمد المنصور برسالة إلي الصدر الأعظم سنان باشا ، يعزيه في موت السلطان ، ويهنئه بتولية أبنه محمد الثالث(٣٥).

وقد ثار ابن القاضي أمير كوكو ببلاد القبائل ، مناهضا العثمانيين كاسلافه ومادا يديه للأسبان محتلي وهران ليساعدوه على خصومه حكام الجزائر ، فبعث هؤلاء للمنصور بكتاب مع الكخية يوسف ، يشكون إليه ذلك الأمير الخائن ويخبرونه باحتمال هجوم الأسطول الأسباني عليهم ، فرد عليه المنصور برسالة مطولة جاء فيها : (إن آنستم من جانب الكفرة – دمرهم الله– عمارة تنشئ أو أسطولا يؤم ناحيتكم ، واحتجتم إلينا فنحن بحمد الله بأنفسنا وأموالنا وأجنادنا موجودون لنصرتكم على أتم أهبة واستعداد ، ولحتفال لا يزال لنكاية الكفر بحول الله بالمرصاد وآذاننا صاغية لداعيكم ، وهبوب صوت مناديكم . ومتى ناديتم وافيناكم – بحول الله– بعساكرنا المظفرة بالله خيلا وناراً ، وأسودا للجهاد تزأر في ذات الله نهارا)[٣٦].

وقد كانت مثل هذه المراسلات التي استمرت أغلب سنوات حكم المنصور دليلا أكيدا على مثل هذه العلاقات الودية بين البلدين.

ولقد استمرت هذه العلاقات الودية بين البلدين في عهد المنصور الذهبي مما أسفر عنه المزيد من التقدم والازدهار للمغرب في عهده وعدم مصادمة العثمانيين عند حدوده بل توجه بعد ذلك للتوسع تلقاء السودان الغربي وإخضاع بعض ممالك الغرب الأفريقي ، فاحتل توات وتيكورارين ، ثم الممالك السودانية ومن أهمها مملكة لامبتيين ، وكان هذا ما بين عامي ١٥٨٨- ١٥٩١م ، وذلك بفضل جيوشه المسلحة بالأسلحة النارية ، والمزودة بالمدافع.

وقد أثرى توسع السعديين إلى السودان خزائن المنصور بالذهب والغنائم الكثيرة ، مما مكنه من انجاز مشاريعه العمرانية كقصر البديع والعسكرية والاقتصادية وغير ذلك والإنفاق عليها بسخاء[٣٧] ، فقويت

المغرب في عهده وأصبحت إمبراطورية مرهوبة الجانب متينة الاقتصاد وقد لقب أحمد المنصور بالذهبي لبلوغ المغرب في عهده عصرها الذهبي من التوسع والرخاء الاقتصادي والاجتماعي.

لكن ما لبث المغرب أن تفكك من جديد بعد وفاة أحمد المنصـــور وأدى ذلك إلي سقوط دولتهم في الفترة ما بين ١٦٠٣- ١٦٥٩م ، نتيجة التناحر على السلطة بين أبناء المنصور مما أدى إلي انقسام المغرب فـــي تلك الفترة إلي مملكة شمالية ومملكة جنوبية ، مما هيأ الفرصة للأسـبان من جديد لغزو موانئ المغرب وثغورها ، واستطاعوا بالفعل احتلال ميناء العرائش بالتواطؤ مع محمد الشيخ عام ١٦١٠م ، ثم ميناء المعمورة عام ١٦١٤م ، وكان للانجليز والهولنديين أطماع في احتلال مواقع أخـــرى ، ولم يتدخل العثمانيون في الشئون المغربية بشكل كبير بعد ذلك ، فقد كانت حروبهم المستمرة في القارة الأوروبية من جهة وبين الشيعة في إيران من جهة أخرى تعيقهم عن أي تفكير السيطرة علـــى المغـــرب الأقصـــى أو مناهضة حكامه.

هوامش الفصل الخامس

١- خاليد فؤاد طحطح ، العلاقات المغربية العثمانية خلال القرن ١٦م ، مقال بمجلة الفسطاط التاريخية على الموقع الالكتروني www.fustat.com ، ص١.

٢- شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الانجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٧م ، ص٥٣ ، نقلا عن أبو عبد الله بن محمد بن احمد الكانوشى العبدى ، آسفى وما عليها قديما وحديثا ، ص٨٢.

٣- المرجع السابق ، ص٥٥ ، ٥٦.

٤- المرجع السابق ، ص٥٨.

٥- المرجع السابق ، ص٦٢ ، ٦٣.

٦- السعديون : هم من أسرة عربية الأصل كما هو مؤكد لدى من أرخ لهم ، انتقلوا من ينبع بالحجاز إلى درعة بجنوب المغرب ، استوطنوا قرية (تاكمادرت) وذلك في المائة السادسة من الهجرة ، وكان الاعتقاد السائد لدى المغاربة أنهم من الأشراف ، لكن خصومهم من بقايا الوطاسيين والمرينيين وأنصارهم كانوا يطعنون في صحة نسبهم الشريف ، معتمدين في ذلك على البتر الذي لوحظ في عمود نسبهم كما ذكر ابن القاضي . وقد ظل السعديون حتى مطلع القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادي يحيون في المغرب حياة بسيطة دينية وعلمية ، ولم يبرزوا على المسرح السياسي إلا حين اشتدت وطأة البرتغاليين على سكان الجنوب الغربي ، ولم يتدخل الوطاسيين لحمايتهم ، ومن هنا ظهروا كقادة لحركة تحرير ، لهذا التف حولهم الناس وبايعتهم القبائل. (انظر

إبراهيم شحاتة حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ١٩٨١م).

٧- جلال يحيى ، المغرب العربي والاستعمار ، المكتبة الثقافية رقم ١٦٤ الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١ نوفمبر ١٩٦٦ ، ص١٦.

٨- المرجع السابق ، ص١٨.

٩- المرجع السابق ، جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير ، ص٣٥.

١٠- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادي المخازن الخ ص٧١.

١١- المرجع السابق ، ص٧٦.

١٢- المرجع السابق ، جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير ، ص٣٢ ، ٣٣.

١٣- محمد مجي ، جولات تاريخية ، الجزء الثاني ، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م ، ص٥٢٥.

١٤- عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء ١٩٧٧م ، ص٨٠ ، ٨١.

١٥- المرجع السابق ، ص٨١.

١٦- المرجع السابق ، ص٢٠ ، ٢١.

١٧- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادي المخازن الخ ، ص٩٩ : ص١٠١.

١٨- عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ أقدم العصور المجلد الثامن ، الرباط ١٩٨٧ م ، ص١٧ : ٢١.

١٩- محمد رزوق ، دراسات في تاريخ المغـــرب ، أفريقيـــا الشـــرق ، ص٨٩.

٢٠- المرجع السابق ، ص٩١.

٢١- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٠٠.

٢٢- المرجع السابق ، محمد رزوق ، دراسات في تـــاريخ المغـــرب ، ص٩٤.

٢٣- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٧٤ ، ١٧٥.

٢٤- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعـــة وادي المخـــازن ، ص١٧٢.

٢٥- المرجع السابق ، ص١٧٥ ، ١٧٦.

٢٦- المرجع السابق ، ص١٧٢.

٢٧- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٧٥.

٢٨- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعـــة وادي المخـــازن ، ص١٧٦.

٢٩- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبيـــر ، ص١٧٦.

٣٠- المرجع السابق ، إبراهيم شحاتة حسن ، وقعـــة وادي المخـــازن ، ص١٨٤ ، ١٨٥.

٣١- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٧٥ : ١٨٥.

٣٢- المرجع السابق ، عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، ص١١٢.

٣٣- المرجع السابق ، شوقي عطا الله الجمل ، المغرب العربي الكبير ، ص١٨٤.

٣٤- المرجع السابق ، محمد مجي ، جولات تاريخية ، ص٥٣٢.

٣٥- انظر نص الرسالة في المرجع السابق ، ص٥٣٢.

٣٦- المرجع السابق ، ص٥٣٢.

٣٧- إبراهيم شحاته حسن ، أطوار العلاقات المغربية العثمانية ، الإسكندرية ، ١٩٨١م.

الخاتمـــــة

لقد استتب الأمر للعثمانيين في ولايات المغرب العربي منذ الربع الأخير من القرن السادس عشر. ومنذ بدايات القرن السابع عشر أصبحت ولايات الشمال الأفريقي ذات أهمية كبيرة ، خاصة غربي المتوسط ممـــا أضفى عليها المجاهدون من سمعة بحرية كبيرة ، عن طريق غـــزواتهم المستمرة على سفن النصارى وسواحلهم الأوروبية . ففي سنة ١٦١٥م – ١٦١٦م تضاعفت قيمة الغنائم ، واعتبارا من ١٦١٣م حتى عام ١٦٢١م بلغ عدد السفن التي أسرت أكثر من تسعمائة وســت وثلاثـــين ســفينة ، وكانت هذه السفن من مختلف الدول الأوروبية.

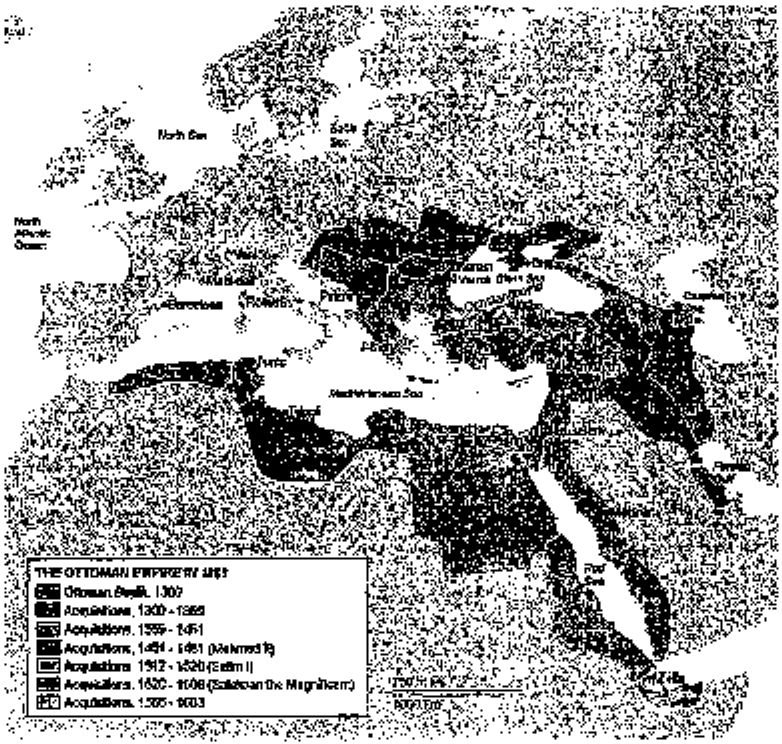
ولقد كانت جرأة رؤساء البحر تزداد يوما بعد يـوم حتـــى أنهـــم هاجموا السفن في وسط المحيطات وتوصلوا إلي بحر المانش الانجليزي وتوغلوا في ايرلندا وضربوا سواحلها وسواحل بريطانيا العظمى ، ولـــم ينج من هجماتهم أي طرف من الأطراف ، خاصة دول غربي المتوسط ، حتى أن الإعمال البحرية للعثمانيين قد وصلت حتى أمريكـــا الشـــمالية ، فهناك العديد من المصادر تشير إلي ذهابهم إلي جزيرة نيوفوندلاند الواقعة في أمريكا الشمالية (إحدى الجزر الكندية حاليا) وقد غنموا من هناك أموالا كثيرة إلي جانب بعض السفن الاسبانية التي كانت تتجه إلي فرجينيا.

لقد أدى كل ذلك إلي ازدهار مدن الشمال الأفريقي فـــي القـــرن السابع عشر ، خاصة مدينة الجزائر التي قال عنها بردان (بلغ عدد سكان مدينة الجزائر سنة ١٦٣٤م أكثر من مائة ألف نسمة ، وخمسة عشر ألف منزل ومائة سبيل للماء ، وكانت المدينة مزدانة بالحدائق الجميلة الرائعة التي تحيط بالمدينة إحاطة كاملة).

ولقد استمرت العمليات البحرية العثمانية تزرع الرعب في قلوب الأوروبيين من قبل المجاهدين الإسلاميين في الشمال الأفريقي حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، عندما احتلت الجزائر من قبل فرنسا ، فانقضت بذلك صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي المجيد ، خاصة بعد تنامي القوة البحرية البخارية للدول العظمى آنذاك خاصة بريطانيا وفرنسا فسيطرتا بذلك على الملاحة في البحر الأبيض المتوسط.

هكذا وفي نهاية هذا البحث نستخلص أن الدولة العثمانية لم تكن دولة استعمارية معادية لدول المشرق والمغرب العربي ، بل كانت دولة إسلامية عملت على حماية العالم العربي والإسلامي من خطر الهجمات الصليبية والاستعمار الحديث ، الذي أراد استئصال شأفة الإسلام والمسلمين من المنطقة بأسرها ، كما فعل بالمسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية التي انتهى منها الإسلام نهائيا بعد بقائه فيها لأكثر من ثمانية قرون على يد الأسبان والبرتغاليين ، ألد أعداء المسلمين في تلك الفترة ، لكن الله بفضله ومنته قد قيض لهم الدولة العثمانية التي وحدت المشرق والمغرب الإسلامي للوقوف أمامهم وإحباط مخططاتهم ، بل زادت على ذلك نشرها للإسلام في بقاع لم يصلها من قبل في أوروبا وآسيا ، وكانت بذلك من أكثر الدول الإسلامية تأثيرا وأطولها بقاء ، وبسقوطها تشرذم العالم العربي إلى شراذم لا نستطيع لم شملها حتى الآن.

اللوحات والخرائط



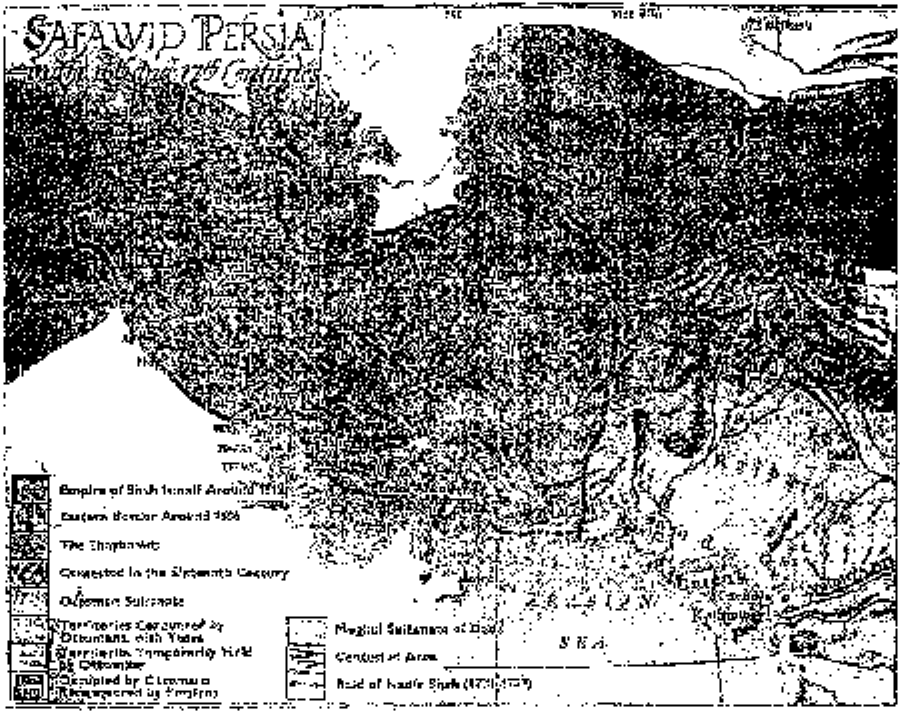
شكل (١)

خريطة توضح مراحل التوسع العثماني منذ عام ١٣٠٠م حتى عام ١٦٨٣م



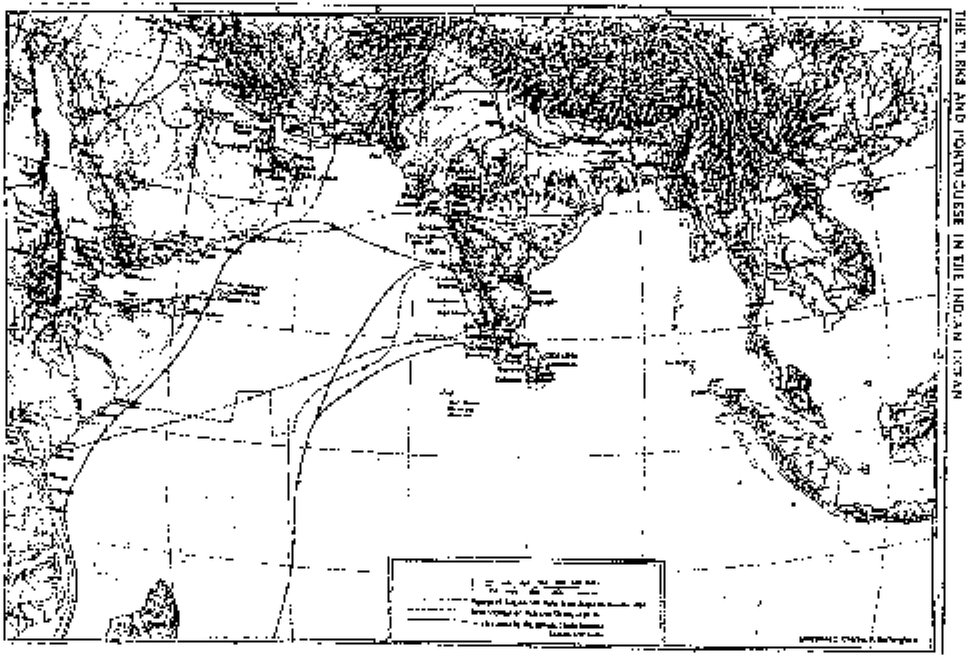
شكل (٢)

خريطة توضح التوسع العثماني في أوروبا وآسيا في القرنين ١٤ و١٥ م



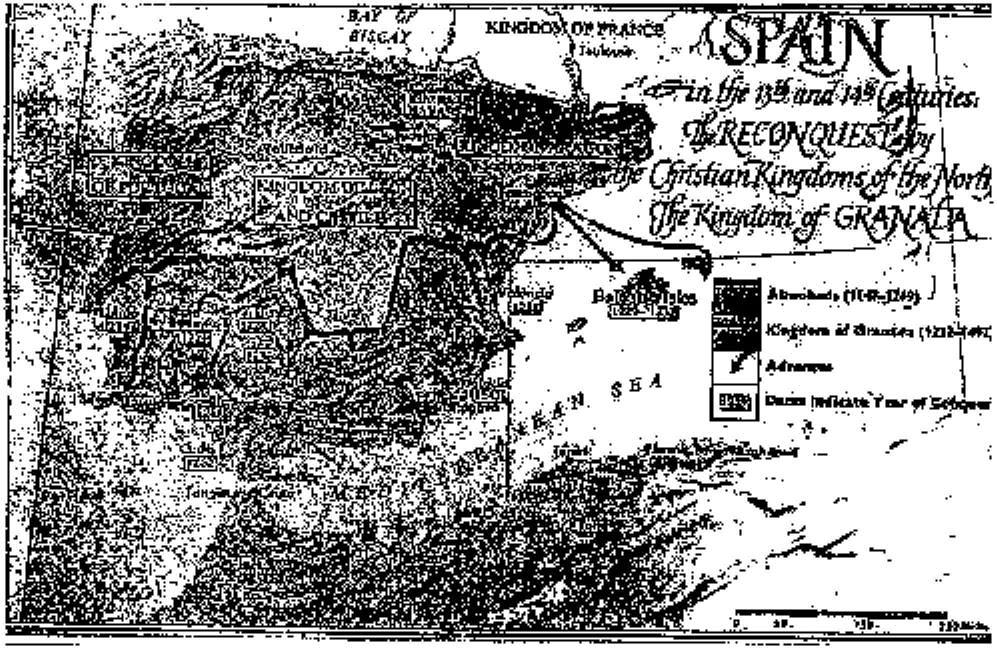
شكل (٣)

خريطة توضح حدود الدولة الصفوية في القرن ١٦م



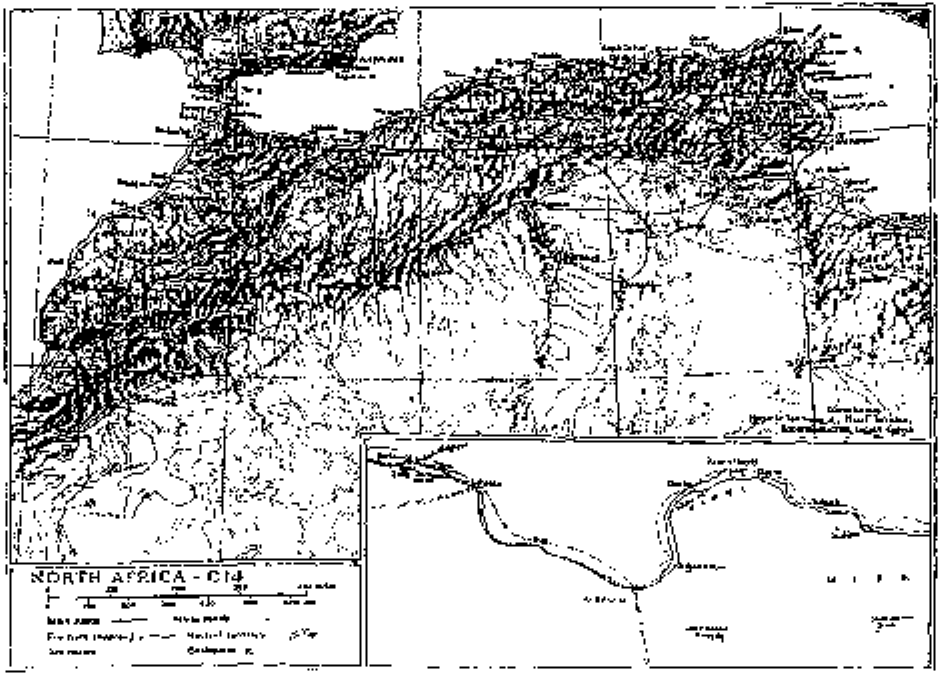
شكل (٤)

خريطة توضح التحركات العثمانية والبرتغالية في المحيط الهندي في القرن ١٦م



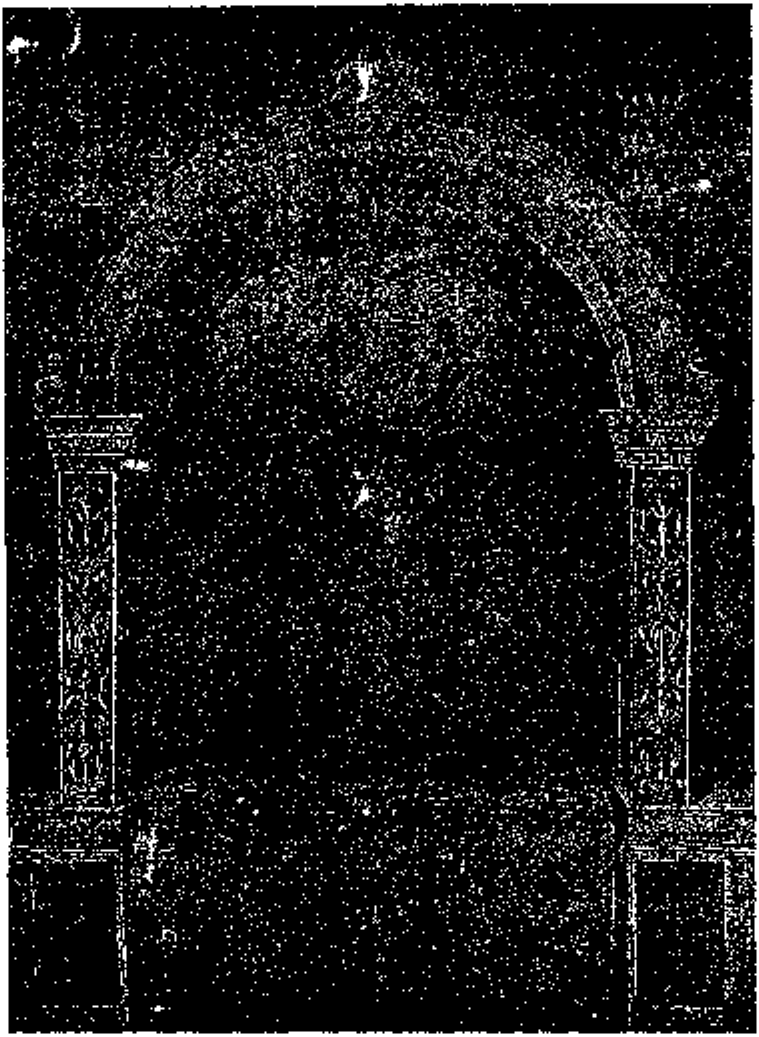
شكل (٥)

خريطة توضح الاسترداد المسيحي لاسبانيا منذ القرن ١٣م



شكل (١)

خريطة توضح بلدان المغرب العربي تحت السيطرة العثمانية



شكل (٧)

السلطان محمد الفاتح



شكل (٨)

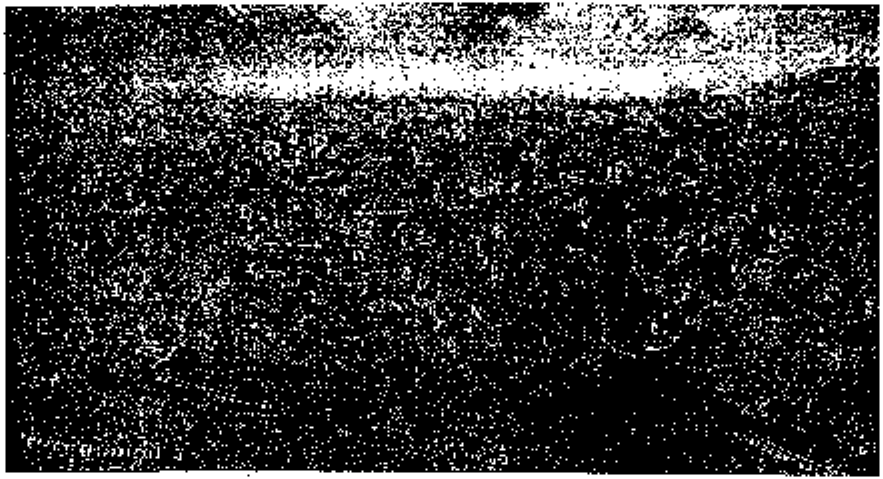
السلطان سليمان القانوني





شكل (٩)

يوضح الأخوان عروج من على اليمين وأخيه خير الدين بربا روسا



شكل (١٠)

لوحة تمثل معركة ليبانتو البحرية عام ١٥٧١م

المصادر والمراجع

المصـــادر والمراجــــع

أولا : المصادر العربية :

١- ابن لياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة مطبعة الشعب عام ١٩٦٠م.

٢- ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة فى ملوك مصـــر والقـــاهرة ، ١٢ جزء ، طبعة دار الكتب المصرية.

٣- ابن خلدون ، المقدمة لكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيـــام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبـــر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٦م.

٤- إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عـــن دول البحـــار ، المطبعـــة الأميرية ببولاق ، القاهرة عام ١٣٤١ للهجرة.

٥- أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، تحقيق وتعليق : جعفر الناصري ومحمد الناصـــري ، دار الكتاب – الدار البيضاء عام ١٩٥٥م.

٦- عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار فـــي التـــراجم والأخبـــار ، المطبعة العامرة الشرقية بمصر عام ١٣٢٢ للهجرة.

ثانيا : المراجع العربية :

١- أحمد فؤاد متولي ، تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها وحتى نهايـــة العصر الذهبي ، ايتراك للنشر والتوزيع ، عام ٢٠٠٥م.

٢- إسماعيل أحمد ياغي ، العالم العربي في التاريخ الحديث ، مكتبـــة العبيكان ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٧م.

٣- أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإســـلامية ، مكتبة النهضة العربية ، الطبعة السابعة عام ١٩٨٦م.

٤- أحمد عبد الرحيم مصطفى ، في أصول التـاريخ العثمـاني ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، عام ٢٠٠٣م.

٥- إبراهيم شحاتة حسن ، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغـرب ، قراءة مغربية عبر علاقات المغرب الدولية في القرن السادس عشر دار الثقافة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٦م .

٦- إبراهيم شحاتة حسن ، أطـوار العلاقـات المغربيـة العثمانيـة ، الإسكندرية ، ١٩٨١م.

٧- إبراهيم علي طرخان ، البرتغاليون في غرب أفريقيا ، مقال بمجلة كلية الآداب جامعة القاهرة ، المجلد ٢٥/الجزء الأول ، مايو عـام ١٩٦٣م.

٨- إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، دار الرشـاد الحديثـة – الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.

٩- أحمد مختار العبادي ، دراسات في تاريخ المغـرب والأنـدلس ، الإسكندرية ، ١٩٨٥م .

١٠- أحمد مختار العبادي / السيد عبد العزيز سالم ، تـاريخ البحريـة الإسلامية في المغرب والأندلس ، الإسكندرية ، ١٩٨٥ م.

١١- السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، الجزء الثاني ، العصـر الإسلامي ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٦.

١٢- حسن صبحي ، دراسات في تاريخ شمال أفريقيا الحديث والمعاصر مؤسسة شباب الجامعة – الإسكندرية ١٩٧٥م.

١٣- حسين مؤنس ، معالم تاريخ المغرب والأندلس ، الهيئة المصـرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٤م.

١٤- جمال حمدان ، الاستعمار والتحرير في العالم العربي ، المكتبة الثقافية رقم ١٢٣، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٥ ديسمبر عام ١٩٦٤م.
١٥- جلال يحيى ، تاريخ المغرب، الكبير من أقدم العصور حتى الوقت الحاضر ، الجزء الثالث ، الدار القومية للطباعة والنشر عام ١٩٦٦م.
١٦- جلال يحيى ، المغرب العربي والاستعمار ، المكتبة الثقافية رقم ١٦٤ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١ نوفمبر ١٩٦٦م.
١٧- جلال يحيى ، البحر الأحمر والاستعمار ، المكتبة الثقافية رقم٧٥ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٥ ديسمبر ١٩٦٢م.
١٨- خالد فؤاد طحطح ،العلاقات المغربية العثمانية في القرن ١٦م ، مقال بمجلة الفسطاط ، على الموقع الالكتروني www.fustat.com.
١٩- سعيد عبد الفتاح عاشور ، أضواء جديدة على الحروب الصليبية ، المكتبة الثقافية رقم ١١٨ ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١ أكتوبر ١٩٦٤م.
٢٠- شوقي عطا الله الجمل ، المغرب الكبير في العصر الحديث ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى عام ١٩٧٧م.
٢١- عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعدية ، الدار البيضاء ١٩٧٧.
٢٢- فاروق عثمان أباظة ، أثر تحول التجارة العالمية إلي رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر دار المعارف ، الطبعة الثانية.

٢٣- فاروق عثمان أباظة ، دراسات في تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر ، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ١٩٩٥م.

٢٤- فؤاد محمد شبل ، حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ ، المكتبة الثقافية رقم ٢١١ ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر – القاهرة.

٢٥- عمر عبد العزيز ، تاريخ المشرق العربي ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية عام ١٩٩٨م.

٢٦- عمر عبد العزيز ، دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر ، دار النهضة العربية – بيروت ١٩٨٠م.

٢٧- عمر عبد العزيز ، جوانب من تاريخ المغرب العربي في العصر الحديث ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٩م.

٢٨- عبد العزيز الطنطاوي القرموطي ، العلاقات المصرية العثمانية ، الزهراء للعلام العربي ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٥م.

٢٩- عبد العزيز الشناوي ، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ثلاثة أجزاء ، مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة ، الطبعة الثانية عام ١٩٨٦م.

٣٠- علي الصلابي ، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، دار التوزيع والنشر الإسلامية ، الطبعة الثانية عام ٢٠٠٤م.

٣١- عايض بن حزام الروقي ، جهود الدولة العثمانية في تأمين الطريق البحري من عاصمة الدولة إلي الحرمين الشريفين ، مقال بالمجلة التاريخية المصرية ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية المجلد ٤٢ ، عام ٢٠٠٤م.

٣٢- عبد العظيم رمضان ، تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث ، ثلاثة أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، عام ١٩٩٧م.

٣٣- عبد الفتاح مقلد الغنيمي ، موسوعة المغرب العربي ، مكتبة مدبولي القاهرة.

٣٤- عبد الجليل التميمي ، أول رسالة من أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول عام ١٥١٩م ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية تونس ، العدد ٦ ، يوليو ١٩٧٦م.

٣٥- عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية ، العدد ٣ ، يناير ١٩٧٥م.

٣٦- عبد الجليل التميمي ، رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية في القرن ١٦ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية – تونس ، العدد ٢٩ – ٣٠ ، يوليو ١٩٨٣م .

٣٧- عبد الجليل التميمي ، الخلفية الدينية للصراع الاسباني العثماني على الايالات المغربية في القرن ١٦ ، مقال بالمجلة التاريخية المغربية- تونس ، العدد ١٠- ١١ ، يناير ١٩٧٨م.

٣٨- محمد رزوق ، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب ، أفريقيا الشرق عام ١٩٩٨م.

٣٩- محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ثمانية أجزاء ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠١م.

٤٠- محمد فريد المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، دار النفائس ، بيروت عام ١٩٨١م.

٤١-محمد العروسي المطوى ، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب دار الغرب الإسلامي ١٩٨٢م.

٤٢-محمد مجي ، جولات تاريخية ،الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٤٣-ممدوح حسين / شاكر مصطفى ، الحروب الصليبية في شمال أفريقيا وأثرها الحضاري ، دار عمار بالأردن ، الطبعة الأولى ، عام ١٩٩٨م.

٤٤-ياسر أحمد حسن ، تركيا البحث عن المستقبل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة عام ٢٠٠٦م.

ثالثا : المراجع الأجنبية المترجمة :

١- أحمد آق كوندز ، الدولة العثمانية المجهولة ، وقف البحوث العثمانية ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٨م.

٢- أندريا ريمون ، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة : لطيف فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، عام ١٩٩١م.

٣- أليكس جورافسكي ، الإسلام والمسيحية ، ترجمة : خلف محمد الجراد ، سلسلة عالم المعرفة رقم ٢١٥ ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب – الكويت ، نوفمبر عام ١٩٩٦م.

٤- روبير مانتران ، تاريخ الدولة العثمانية ، ثلاثة أجزاء ، ترجمة : بشير السباعي ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٣م.

٥- شارل أندرى جوليان ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، تعريب : محمد غزالي والبشير بن سلامة ، الدار التونسية للنشر عام ١٩٨٥م.

٦- عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، ترجمة : د.محمود علي عامر ، ، دار النهضة العربية - بيروت ، الطبعة الأولى عام ١٩٨٩م.

٧- عزيز سامح ألتر ، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية ، الجزء الأول في طرابلس ، دار الفرجاني - القاهرة.

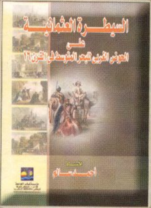
٨- كارل بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة : نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الخامسة.

٩- مرثيديس غارثيا أرينال ، الموريسكيون الأندلسيون ، ترجمة وتقديم : جمال عبد الرحيم ، المشروع القومي للترجمة رقم ٤٥٨، المجلس الأعلى للثقافة ، الطبعة الأولى عام ٢٠٠٣م.

١٠-محمد فؤاد كوبرلي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة : د. محمد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر عام ١٩٦٧م.

الفهـــــرس

Inv: 1229
Date: 19/5/2011


السيطرة العثمانية
على
الحوض الغربي للبحر المتوسط في القرن ١٦
أحمد سالم